الوداع الأخير

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

- **الكتاب: الوداع الأخير**
- **المؤلف: نوال سلماني**
- **نوع العمل:رواية**
- **الطبعة الأولى 1440 هـ - 2019 م - القاهرة**
- **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

- **رقم الإيداع : 25804 / 2019**
- **الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6754- 74-4**
- الغلاف: ببلومانيا
- تنسيق وإخراج: فريق إعداد ببلومانيا
- المدير العام: جمال سليمان
- العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة
  عنوان (2): 38 شارع عمر المختار – الأميرية – القاهرة
- تليفاكس: 0020226061014
- محمول: 00201208868826 – 00201065534541 – 00201210826415
- صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
- الموقع الإلكتروني: www.bbibliomania.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

الوداع الأخير

رواية

نوال سلماني

www.bbibliomania.com

2019

إهداء

إهداء إلى كل من فقد الأمل في الحياة ،لاشيء يستحق حزنكم، ابتسموا من أجل أنفسكم ...

*****

بيروت –تشرين الثاني ١٩٦٨م

يجلس دائماً في غرفةٍ مظلمة، يتسلل إليها ضوء خافت من نور القمر، يخترق ثقباً من وراء الستار الخشن القديم المهترئة خيوطه... ويلبس معطفا أسودا وبنطلونا لا يكاد لونه يُرى من ظلمة الغرفة. خلفه مدفأة صغيرة توقد بالحطب، ينظر من النافذة متلهفا لقدوم شخص عزيز على قلبه، يقفز قلبه كلما أبصر ضوءًا قادما نحو المنزل من طريق الغابة كثيفة الأشجار، العزلة شيء مريح أحيانا، ولكنها أحيانا أخرى تؤذي القلب، فالقلب بصفة عامة يميل لمن يدّلِله ويحنو عليه، فهو عضلة تحب العيش بجانب دقاتٍ أخرى تساعده على الاستمرار في العيش... تلك الدقات التي تمنحنا الأمل في الحياة والرغبة في الاستمرار والتقدم والعطاء.

أحسَّ بالبرد فقام وأضاف للمدفأة الحطب، فتعالت ألسنة اللهب وهو ينظر إلى النار... خاف وتراجع للخلف ثم أخرج صندوقا كبيرا، فتحه وجلس يقرأ رسائلها الغرامية المكتوبة بحبر الخيانة الأسود، والمعطرة بحيلها وألاعيبها الخبيثة.

ــ بوكـاهنتس متى تزورينني؟ مـرّ أسبـوع على آخـر لـقاء لنـا؟ لن تجـرؤ على نسيـانـي، أكيـد.

يتذكّر آخـر حوار بينهما:

ــ عزيزتـي

ــ نعـم عزيـزي

ــ ألا تريدين الزواج وإنجـاب الأطفـال؟

ــ لا أفكـر في هذا الأمر مطلقـًا، أريد القيـام بعدة أشيـاء كالسفر والدراسة في دولة أو روبية وأمور أخرى أرغب بها.

ــ لقـد تغيَّـرتِ جـدا معي، تفكـرين في أشيـاء يصعب عليـك تحقيقها وحـدك، وتضيعين فرصة الارتبـاط بي؛ زواجـي بـك سيفتـح لك عدة أبواب، فلتـنظري إلـى عينـيّ... ألا ترغبيـن بي شريكـا؟ لا عليـك.

أرهقه التفكيـر وإعـادة جميع لقاءاتهما وتحليـل كلماتها المنمقة وحركاتها المغرية حينما ترغب بالحصول على المـال منه.... نـار حبه المشتعلة بداخله كلهب المدفـأة المتراقص على الحطب العتيـق يضيء جانبـاً من وجهـه الذابـل الحزين،

ذاك الجانب الأيسر الذي يقابل به كل العابرين في حياته والمضطر للحديث معهم ورؤيتهم بضع دقائق ثم ينصرف. بزغت أشعة الصباح الشتوية الخجولة المختبئة وراء الغيوم الداكنة والمتراصة الحاملة لكمياتٍ كبيرة من المطر، والتعبة المثقلة بالحمل... تمر على مقربة من الأرض وتنزل في كل بقعة القليل من حملها لتخفف عليها ثقل الأمطار.

توقفت سيارة قديمة، أمام منزله ونزلت منها فتاة شابة في العشرينات ترتدي معطفا رماديا وبنطلونا أسود، وتحمل حقيبة يد كبيرة.... تُكلم سائق السيارة.

ــ انتظرني لن أتأخر عليك.

ــ حاضر سيدتي.

فتحت باب المنزل ودخلت واتجهت للطابق العلوي بخطوات مترنحة.

ــ كم مرة على أن أخبره أن يفتح نوافذ المنزل للتهوية؟

تضع حقيبتها وتفتح النافذة، هو لا يحب أن يشعل الأضواء لا في الليل ولا في النهار، يكلمها في آخر الرواق المظلم:

ــ اقفليها رجاء.

لا تسمع كلامه وتبعد الستار عن النافذة يهرب للغرفة المظلمة. فتذهب إليه وهي تتمايل من فرط غرورها وتبجُّحها:

ــ صباح الخير، هل تناولت فطورك؟

ــ ومن يعدّه لي؟

ــ حسنًا سأعدّه لك، دقيقتان وأحضره.

تنصرف للمطبخ غير مبالية به، أما هو فيبقى جالسًا في غرفته الموحشة.... يلاعب قطته السوداء... تعود وهي تحمل صينية الإفطار. قليلا من الشاي وبضع زيتونات في الصحن، والقليل من الخبز بجانبه شرائح الجبن.... فطور شرقي بسيط.

ــ أخبرتك أنني لا أحب القطط... إرمِ بها خارجاً.

ــ ولكنها رفيقتي الوفية، هي تؤنس وحدتي... أنسيتِ؟

ــ لا لم أنسَ ولا داعِ لأن تذكرني بوحدتك كلما زرتك.... المهم تفضل إفطارك.

ــ لا أريد، شكـرا لك.

ــ إذًا. لـمَاذا لـمْ تخبرنـي أنك لا ترغب في الأكل وتركتنـي أعـده لك، لا عليـك سأتركـه هنـا وعندمـا تجوع تناوله.

ــ لـوكنت أعددتـه لي بحب، لكنت التهمته بشراهة.

ــ مـا هذا الكـلام؟ ... أنت تعلـم أننـي أحبـك.

قـام من مكـانه واقترب منها، لم ترَ من وجهه إلا النصف الأيسر، فقـد كـان يغطـي النصف الثانـي بشـاش طبـي:

ــ بوكـاهنتس، تستطيعيـن أن تكـذبي على العالـم كلـه إلا عني أنـا، أتظنينني غبيـا؛ لا أنتبـه؟ لقد تغيـرت كثيـرًا...وقـد يُخيـل إليـك أنني لـم أعـد أصلـح لشـيء... أنت مخطـئة في حقـي، تظلمينني علنـاً.

ــ لا لـم أتغيّـر أنت تتوهـم، كـل هذا بسبب وحدتـك، واعتـزالك للعالـم. صرت تحـس أن النـاس تغيـروا وأنـك إنسـان منبـوذ ووحيـدٌ.... لم يتغيـر أحـد، كـل شـيء طبيعـي كمـا تـرى.

ــ لمـاذا تتحدثيـن معي ولا تنظريـن لعينـاي، لا تقـوين على النظر لوجه رجـل

مشـوه، أحرقتـه النيران أمـام عينيـك، وأحرقتـه نيـران الشوق إليـك... رجاءً ارحمـي ضعف رجـل أحبـكِ، وقـدري حبـي لك... لمـاذا كلمـا طلبت منـك الزواج تحججت بألف حجة وألف سبـب؟ أكرهتنـي؟ هيـا قوليـها !!! ولننهي الموضوع الآن... لا قـوة لـي على تحمـل الألاعيب.

ــ رجاءً، لا تتكـلم هكـذا؛ فأنت تقتلني ولا تشعـر، أخبرتـك مرارًا وتكرارًا أن والـدي مريض وأنـا من أعيـلُ أسرتـي...عن أي ألاعيـب تتحـدث؟؟.

ــ وأنـا أخبرتـكِ أنني سأحتـوي عائلتـك، سأمنحهم منـزلًا، سأقوم بكل متطلباتهم وكـل مـا يحتـاجونه في الحياة؛ لن أبخـل عنهم أبدا. تعلميـن أنني رجـل لا أكـذب... ومقـابل كـل هذا أريد حبًّا منك وليس عطفًـا مع الشفقة...أريد عشقًـا يُنْسني كـل ما مررت بـه...أريـدك أن تكونـي أمـي، وأختـي وصديقتـي وكـل شـيء...هل هذا صعب تحقيقـه؟ هل طلبت المستحيـل.

ــ أعلـم ما تريـده...لندع هذا الموضوع حاليـا...أرجـوك.

ــ ومتى نتحدث عن الزواج إذا؟ عندمـا نموت، أو عندمـا يرحـل الشباب

هبـاء.... لقـد فهمتـك بلا شرح، لا تريدين زوجـا مشوهـا فهو يخيفـك وسيخيف عائلتـك وكـل من حولك...فأنـا الوحـش وأنتِ الأميـرة...اذهبـي لقـد تأخرتِ عنهم.

ــ لا تتكلـم معي بقسوة رجاء، تفهَّـم وضعـي.

ــ قلت اذهبـي

ــ فريـد

ــ فلتذهبـي، غـادري من فضـلك.

التفـت للنافـذة وشبـك يديـه وراءه وهو يخفـي بريق تلك الدموع الدافئـة التي تسيـل على وجهه المشوه بسبب الحب، واليتـم، وألـم الوحـدة. لقـد أخفى دموعـه عنها ظنًّا منه أنها ستحس به وتشفق عليه وتبقى بجانبـه وتنسيـه همـه بقُبلـة دافـئة وحضنٍ حنـون.... شعرتْ بالألم قليـلاً، وتأنيـب الضمير من كـذبها وخيـانتـها ومراوغتها... استعـدت للرحيـل من منزلـه، مشـت بضع خطـوات فناداها قائلا:

ــ هل تعلميـن لماذا أحب منـاداتك بوكاهـنتس؟

ــ لا...لا أعلـم

ــ بوكـاهنتس تعنـي الفتـاة المرحـة، البريئـة... هكـذا تراك عينـاي الفتـاة البريئـة.

ــ جميـل، وتلك هي أنـا بريئـة وصادقـة، ولكننـي تعيسـة معـك، كلمـا قدمت إليـك تؤنبنـي وتصرخ في وجهـي وتشـك في محبتـي لك.

ــ هيـا اذهبـي!

تخرج من الغرفـة مسرعة كمن يخرج من السجن.... يقتـرب من ثقـب الستـار وينظر إليها وهي تركب السيـارة... يمسح دموعـه ويلتفت لصينيـة الفطور يقتـرب منها ويأكـل وهو يجهش بالبكـاء كالطفـل، كيف لا يبكـي ومن أحبها واحترق لأجلها غـادرته بقلب بارد، لا يحس به ولا ينبض لأجلـه، كم هو صعب أن ترى من أحببتـه يتغيـر عنـك بلا سبـب أو يتخلى عنـك لمجرد أنك مرضت، فيرقص رقصة الخيـانة أمـام عينيـك وأنت على عِلـم بخيانته المُرّة.

صوت بابٍ يقفـل، التفـت مندهشـًا وقـال بفرح:

ــ لقـد عـادت، نسيـت أن تقول لي أحبـك.

قـام من مكانـه والفرحة قـد سكنتـه وخالجتـه سعادة عظيمة لتدب في كـل جسـده رعشة الحب، هي في نظره كـل الدنيـا، اصطـدم في الرواق بالخـادم جوزيف يدنـو نحوه وفـي طرفة عين عـاد له العبـوس القاهـر.

ــ سيـدي، صبـاح الخيـر، كيـف أصبحت؟

ــ أهلا

قـالها بحزن، وعـاد لغرفتـه المظلمة، يتبعـه خادمـه.

ــ سيـدي لقـد أنجزت مـا طلبتـه مني البـارحة وهـذا الملف فيـه كـل شـيء

ــ اسمع أريـدك أن تراقب تحركـات بوكاهنتس. وأتمنـى أن تنقـل لي كـل مـا تراه منها بالتفصيـل الممـل.

ــ في خدمتـك سيـدي

ــ ابدأ عمـلك اليـوم

ــ حاضر، أتريد أن أحضّر لك الغـداء وأذهب؟

ــ لا، اذهب ولتعـد في المساء بأخبـار مفيـدة

ــ حاضر، ولكن كنـت أريد تغييـر ستائـر المنزل، اهترأت جـدا، وأنت لا تدعنـي أنظف وأرتب، انظر لحال المنزل صار متسخاً.

ــ انصرف يا جوزيـف رجاءً.

خرج جوزيف مرتبكـا وأو صد البـاب...مـر الوقت بسرعة وهـا هو يرتب كتبـه ويزيـل عنها الغبـار. وحـل المساء مصحوبـا برعودٍ وأمطارٍ غزيرةٍ... وصـل الخادم للبيـت واستأذنه للدخـول.

ــ مسـاء الخيـر سيـدي، لقـد ذهبت كمـا أمرتنـي وراقبت منزل والدهـا ولم تخرج منه.

ــ لم تخرج.

ــ نعـم.

ــ قـالت لي أنها تعمـل من أجلهم.

ــ ربما لـم تذهب اليـوم للعمـل.

ــ ربمـا، أنت راقب المنـزل جيـدًا ولا تغفـل عن أي أمـر.

ــ حاضر، هل أُعـد لك طعـام العشـاء؟

ــ لا شكـرًا، اذهب لترتـاح.

ــ سيـدي أنت لا تتغـذى جيـدا، وإن بقيـت على هذه الحالة ستمرض.

ــ عنـدما أجوع سآكـل، اذهب ونـم، وفـي الصباح راقب منزلهـم كـل يـوم... هذا عملك الجديد.

ــ حاضر، تصبح على خيـر.

شعر بالنـدم على كـل يـوم أضاعه راكضاً وراء حبٍ ملعـون، ومع امرأة لعوب يسكنها الجنون، لا تريده بقدر مـا تريد الأمـوال والحيـاة المترفـة، والرفاهيـة، والبـذخ...ورغم أنها فارهـة الجمال لكنها بنصف عقـل، لا تمتـلك مقومـات أخرى تجعلها تعيـش حيـاتها بسعادة كالأخريات، تغيـّرت معـه منذ أن تشـوه، فقبلها أحبـته جدا، أو في الحقيـقة أحبت المـال وتفرح عندما تشـم رائحة النقود بكثـرة...ويكفـي أنها قـد أخذت منه الكثيـر، شبعت منه وتريد التغييّـر...هي شابة جميلـة ولا يرضِها القليل، تطمح لامتـلاك مجوهرات وحرير، ورحلات لتكسـر الروتين، الحيـاة علمتـه الكثيـر ولكنـه تعلـم أكثـر عندمـا واجه

أوجاعه لوحده.. وابتعد عن صخب الحياة وشهواتها، ومغرياتها. ويبقى الملام الوحيد، لمعاقبته أناسا لا ذنب لهم في حيثيات قضيته مع التشوه.

وفي الأخير استفاق بعد رحلة شاقة مع العزلة، وأحب أن يعود كما كان رغم كل شيء عليه أن يدوس بكلتا قدميه على كل وجع ليستطيع أن يكمل حياته بسلامٍ وأملٍ ولو حتى ضئيل.

وككل صباح ومثل أي يوم في حياته يأتي ويرحل مملاً لا أمل فيه ولا حتى زيارة من أقاربه وأصدقائه القدامى، أو حبيبته يجب أن يتنازل ويسأل عنها ويرسل لها رسائلا، ليذكرها أنه حي يرزق، ويرجو زيارة منها تخفف عنه وجعه.

ــ لا ترغب بي زوجا، أيعقل أنها كرهت رؤيتي وسماع صوتي

تمشى في منزله وهو يرى كيف أصبح حال المنزل كئيبا لا بريق فيه، لا حب، لا بشر، في سن الثامنة والعشرين، كان يمكن أن يكون أباً لطفل على الأقل وبوجود زوجة طيبة تناديه بكل حنان وتهتم لأمره وأموره، ولكنه

دفـع ثمن سوء اختيـاره وتهو ره، فالحب أحيانـا يأخذ للهلاك، وأحيـانا أخرى للحزن. امتـلأ هذا البيت بالسعادة أيـام تواجد السيـدة الوالدة، ولكـن لا حاجة لـه اليـوم به لم يعـد يلزمه...أخذ ينظـر لمزهرياتٍ أثرية غاليـة، اقتنتهم والدته المتوفـاة منذ سنتيـن أحبـت جدًا جمـع الأشيـاء القديمة الثمينة اعتقـادًا منها أنها جزء يحمـل أرواح الأجـداد وفيهم بركـاتهم، من سيستفيد منها بعدهـا لا أحد، لا زوجة ابن ولا حفيـدات. ولا حتى ابنـة.

فريد ابنها الوحيد وحدث لها أمـر جعلها تستأصل الرحم، ولم يتزوج بعدهـا والده بل اكتفى بخيانتها مع القاصرات، والمراهقات والأرامـل وحتى العازبـات... زوج مريض العواطف، لم يتزوج إلى أن شاب ومـات وهو عاجـزٌ عن فعـل مـا يرغب بـه كل رجـل، أما هـي فواصلت الحيـاة مع ابنها وأشرفت على تعليمـه وتثقيفـه إلى أن أصبح في عمر السابعة والعشرين عامـا، وتوفيت بسكتة قلبيـة من الوحدة ومن تأنيب الضمير، قضت الليالـي تلوم نفسهـا وتحس بالنقص وبأنها ليست كبـاقي النسـاء اللاتي يعرفـن كيـف

يكسبن قلب الرجل، ربما لأنها خجولة بزيادة، منعها خجلها أن تعيش كما يريد زوجها، امرأة تفهم رجولته حق الفهم، تعامله بجرأة فتنقله لعالم الدهشة وتذهب بعقله لعالم اللاوعي.... رحلت وتركت أشياءً جميلة من طباعها في ولدها ومن بينها الوفاء والطيبة.

بجانب المدفأة يجلس دائما مع ردائه الأسود وظلمة غرفته، لا فرق. بينه وبينها فكلاهما يشترك في السواد. صوت سيارة توقفت أمام المنزل. إنه الخادم فقط !!، من سيزوره في مثل هذا الوقت ويتفقده حياً أم ميتاً... تذكر الفتاة المجنونة بحبه التي تتحدى كل شيء لأجله وتأتي لرؤيته مهما كان الثمن. واليوم تبدل الحال من الأحسن للأسوأ.

وضع الخادم الطعام على مائدة المطبخ وحضّر له عشاءه بسرعة وصعد إليه... طرق الباب ودخل:

ــ مساء الخير سيدي.

ــ مساء الخير...كيف حالك يا ديميتري؟

ــ سأقـول إنني بخيـر لهذا اليـوم... ولكـن في الأيـام القـادمة لن أكـون بخيـر.

ــ لمـاذا؟

ــ سيـدي، أرجو أن تعفِني من مهمـة مراقبـة تلك الفتـاة... فـأنا رجـل كبيـر وغادرتنـي الصحة، لا أقـوى على الوقوف طوال النهار أراقبهـا، إن ساقـاي تؤلماني. أفضـل حرث قطعـة أرض أرحـم من الوقوف بلا حركـة أمـام بيتهـا مثـل الصنم.

يبتسم فريد ابتسامة خفيفـة:

ــ اسمع، خـذ سيـارتي ولا داعـي للوقوف، أبقي فـي السيـارة وراقب من بعيـد. أنت تعلـم أنني لا أثق في الغربـاء. ويمكـن أن يكذب علـي ويأخـذ نقودا بالكذب.

ــ سأصبر يـا سيـدي لأجـلك فقـط

ــ سأمنحك مكـافـأة لا تقـلق، لن يضيع تعبـك سـدىً.

ــ تفضل العشـاء، يبدو أنـك لم تأكـل منـذ البارحة.

يضع أمامـه الصينية ويقول لـه:

ــ سيدي راقبتها اليـوم أيضًا؛ ولكنها لم تخرج من المنزل.

ــ اليـوم أيضًا.

ــ رأيت شيخـا يخرج رفقـة عجوز ولم يتأخرا في العودة... وعـادا مبكـراً أمـا إخوانها فيذهبون للمدرسة ويعودون بعد الظهر...كـل شـيء طبيعـي لغـاية الآن.

ــ اسـأل أحد الجيران أو الجارات عنهم وعن حالهم ومن يعيلهم.

ــ حاضر سأوافيـك بكـل جديد شرط أن تأكـل ولا تهمـل صحتـك.

نظـر إليه فريد ثم قـال له:

ــ أنت الوحيد الذي يهتـم لأمريي، والذي يتفقـدني، شكـرا لك.

ــ سيـدي إن خيـرك عليّ كثيـر وهو ديْن في عنقـي، فمهمـا فعلت لك سأشعـر أننـي لم أو فـيك حقك...وأننـي مقصر في حقـك.

ــ لا تقـل هذا مرة أخرى وإلا سأغضب منك، نحن عائلة واحدة، أنسيت أن والـدك خـدم والديّ لآخر أيامـه؟

ــ لأنكـم أشخاص طيبـون تستحقون أن يخدمكـم المرء بكـل إخلاص وحب.

ـــ شكرا.

جلس فريـد وأخذ يتناول ل طعامـه كي لا يتألـم خادمه أكثـر، وقـد استحى أن يعيـد الأكـل كـل مرة في وجهه، تناوله مرغمـا، حتى لا يقـول أصبح طبخـي لا يعجبـه...هو لا يريد خسارة الشخص الوحيـد الذي يستأنس به ويفهمـه.

جوزيف من عائلـة مسيحيـة وقـد أحب فريد أن يطلق عليـه لقب ديميتري لحبـه الشديـد بالقراءة وتأثـره بشخصيات القصص الموجودة في الروايات. ومعنى ديميتري في اللغة الإغريقية هو أم الأرض وأيضا آلهة الزراعة...جوزيف خادم وفـيٌ جـدا، تعلم الوفـاء من والـده الذي عمـل عندهم لسنوات طويلة. الساعة تشيـر الى العاشرة تماما، يوم جديد لا يختلف عن أيامه الأخرى، فتحت البـاب ودخـلت، تحمـل كيسـا صغيرا فيه علبـة حلوى. ذهبت للمطبخ وأحضرت كأسين ثم صعدت للطابق العلـوي...وفاجـأته.

ـــ تـاتـاتـارااااااا .... لقـد جئـت.

ــ لا داعـي لمفاجآتـك، رأيتـك تدخليـن للمنزل.

ــ لقـد أحضرت لك حلويـات لذيـذة، كنت تحبها جدا.

ــ ولا زلت أحبـها.... لم يغّيرُني شـيء، إن الذي تغيـّر هو أنتِ، فحتى طباعـك تبدلت معي، مـاذا حدث؟ مـاذا فعلت لك لتعاقبينـي بهذا الجفـاء؟

ــ بدأتِ تشاجرنـي...مـا بك؟ عندما أطيـل الغيـاب تنزعج، أزورك تتصرف تصرفـات تجعلنـي أكـرهك وأندم على زيارتك.

ــ وهـا قـد قلتها، لقـد كرهتنـي؟

ــ فريد رجاء، جئت لأراك ولـم آتِ لأشاجرك كن عاقـلا، وإلا غـادرت ولن أعود مرة ثانيـة.

ــ تهددينني بالرحيـل، مـا منـاسبة هذه الحلـوى؟

ــ اشتهيتها، واشتريت لك حلواك المفضلة ألـن تشكرنـي؟ هيـا اشكرنـي، هيـا، هيـا....

بسـطت تنورتها القصيرة الواسعـة واستدارت مستعرضة نفسهـا أمامـه، بدت

سعادتها واضحة، لأول مرة يراها بتلك السعادة والخفة، حتى لون خدودها متورد. فتساءل عن سر هذه السعادة وعن هذا النشاط والحماس المفاجئ؟

ــ أسعديني معك...ما سر هذه الفرحة؟

ــ فرحة !!!، أنا هكذا منذ أن التقيتني أنسيت؟

ــ لا أنسى.

ــ تفضل قطعة الحلوى هذه.

أخذ الصحن وأكل القليل منها، ولكن قلبه قلق غير مرتاح، لتصرفاتها ولحلواها الغريبة.

ــ في الطريق وأنا آتية إليك رأيت محلاً رائعاً يبيع ملابساً جميلة سأمر به لاحقا وأرى الأسعار.

ــ أتحتاجين المال؟

ــ لا أحتاج

قالتها وهي ترغب في ذلك، طأطأت رأسها متظاهرة بالخجل، ففهم أنها تريد، وضع الصحن وقام متجها لدولاب صغير أخرج منه مبلغا لابأس به

وقدمـه لها.

ــ خـذي... تعلميـن أنني أفرح حينمـا تطلبينها منـي ولا تمـدي يدك للغيـر.

سحبت المـال من يـده وسارعت لوضعه في حقيبتها.

ــ شكـرا لك.

ــ شكـرا !!!!!! لا شكـر بيننـا فمالي هو مـالك...أنـا وأنتِ واحـد، كيـف هي أمور عائلتـك؟

ــ بخيـر...سأغـادر لـدي عمـل مهـم أريـد إنجـازه

ــ مـا هو هـذا العمـل المهم؟

ــ سأزور مدرسـة إخوتـي وأطلـع على نتـائجهم لهذا الشهـر ومن هنـاك سآخذ أبـي للمستشفـى لإجراء فحوص روتينيـة وأعود لعملـي.

ــ حسنـا، رغم أنـك لم تطيلِ الزيـارة، ولكـن أقـدر ظروفـك...اسمـعي.

ــ مـاذا؟

ــ لا تعملـي وامكثـي في البيت وسأخصص لك مبلغـا كـل شهر ضعف مـا تحصلين عليـه، لمـاذا تتعبيـن نفسـك بالعمـل في القطاعات الخاصة؟

ــ لا.... بل أريد أن أتكل على نفسي. لا تهتم لأمري...سأغادر، أتحتاج شيئا قبل أن أذهب؟

ــ لا أحتاج

غادرت الغرفة بعد أن أغرقتها بعطرها الفواح وأغرقت حواسه فيها، ظل واقفا لا يعرف كيف يحتفظ بها، وهي في كل مرة تتهرب وتراوغ مبتعدة عنه، ركبت السيارة وفي عينيها ندم خفي، حدقت في منزله حتى غابت عن الأنظار:

ــ خذني لمحل الملابس، الذي زرناه منذ قليل.

ــ حاضر سيدتي.

وصلت للمحل ونزلت، ومكثت فيه قرابة الساعة وهي تجرب كل الفساتين وخرجت منه محملة بأكياس كثيرة، وبعدها أوصلها السائق لمحل تصفيف الشعر:

ــ شكرا سيدي يمكنك أن تنصرف.

زينت نفسها وخرجت، أو قفت سيارة أجرة أخرى لوجهة مجهولة. لم

تغب عيون جوزيف عن منزل والديها، راقب بكل حذر ولم يلحظ شيئا غريبا... بدا له البيت هادئا، لم يخرج منه أحد، قرر ديميتري النزول والاقتراب منه قليلا، فلم يسمع ضجيجا ولا حديثا...استغرب الأمر وعاد نحو السيارة...أبصر امرأة في العقد الخامس تمر من نفس الشارع الذي تسكنه العائلة. فناداها ليسألها:

ــ سيدتي رجاء أريد أن أسألك؟

ــ تفضل سيدي

ــ سكان ذلك المنزل، أتعرفينهم؟

ــ أجل إنهم جيراني... عائلة جيهان.

ــ نعم سيدتي، منذ الصباح وأنا أنتظر أحدهم ليخرج أو يدخل للمنزل أحمل إلى والدهم رسالة أين هم؟

ــ جدتهم توفيت فذهبوا إلى القرية التي تعيش فيها.

ــ متى توفيت؟

ــ ليلة البارحة.

ــ يعني أن العائلـة كلها ذهبت اليـوم.

ــ نعم.

ــ شكـرا سيدتـي.

ــ العفو. ولكـن يمكنـك أن تترك الرسالـة عنـدي، أعـدك سأسلمها لهم شخصيـًّا.

ــ أشكرك، يجب أن أسلمها أنـا هكـذا اتفقنـا.

غـادر ديميتـري المكان.... وبينمـا كـان فريد يقرأ كتابـا سمع محرك سيـارته يتوقف أمام الباب فقـام ليرى:

ــ لماذا عـاد مبكـراً؟

وضع الكتـاب وخرج من الغرفة...وانتظره عنـد السلالم. دخـل ديميتري للمنزل وهو ينظر إليه مبتسـما:

ــ صبـاح الخيـر يا سيـدي

ــ أهلا بـك، لماذا عدت مبكراً؟

ــ لا داعي للبقـاء هنـاك فقـد ذهبت عائلتها لمنزل جدتها التي توفيت البارحة.

ــ أعد مـا قلتـه!!!.

وقف فريد واقترب منه، فأعـاد لـه ديميتري الكـلام:

ــ راقبت منزلهم منـذ الصبـاح ولم يخرج أحـد، وسألت الجارة فقالت إن جدتهم توفيت وذهبـوا إلى منزلها اليـوم.

ابتـلع فريـد ريقـه وهو ينظر لجوزيف مذهولاً، وفي نفسـه يريد أن يصحح فكـرة سيئـة على وشـك احتلال مخه المتعب.

ــ ديميتري، لقـد زارتنـي منـذ قليـل وكانت تبـدو سعيـدة جداً، وأخبرتنـي أنها ستمر على مدرسة إخوتها لتطلع على نتـائجهم، ومن هنـاك ستأخـذ والدهـا لإجراء فحوص روتينيـة، انتظر لا أريد أن أظلمها فهنـاك أفكـار شيطانيـة بدأت تحتـل نفسـي، اذهب ولا تعـد إلا بعد أن تجمع كل الأخبـار الصحيحة.

ــ حاضر سيـدي، لا تقلـق سأعود لك بأخبـار مفرحة ربما جارتها أخطأت.

ــ حسنـا...وفي طريق العودة أحضر لي مسكنـا لألـم الرأس.

ــ موجودة يـا سيـدي، انتظـر سآتي لك بها.

ذهب جوزيف ليحضر لـه حبـة المسكن وكـأس المـاء، أعطاهم لـه وانصرف

مسرعـا، أخـذ مسكنـا لألـم الرأس وجلس يفكـر، ثم نظـر للحلوى التي أحضرتها له وفي قلبـه شكـوك لا تتوقف.

أحيـانـا نصادف خائنـات يرتبطن برجـال طيبيـن مخلصيـن، فيلعبـن بمشاعرهم حتى يفقـدن كـل شـيء، ظنـا منهن أنها أفعـالٌ تجلب لهن المزيد من الرزق...مـا أقبحهن بوجـوه! ومـا أشبعهن بأخلاق!، الخائنـات تفوح منهن رائحة العفـن النفسـي والجسـدي، حتى لو تعطرن وملأن الأرض عطرا ستبقيـن متسخـات يركضن وراء النقـود فقـط، هؤلاء النسوة الغبيـات الجريئـات لن يحصدن إلا الدمـار والوحدة آخـر المطاف.

وأحيـانـا نحب من لا يحبنـا، ونترك من يريدنـا ويعشقنـا، إنها مفترقـات، في كـل مفترقٍ توجد لافتـة تحذرنـا من السرعة، والانحرافـات، والمـوت...

وأجمل لافتـة في هذه المفترقـات هي لافتـة "(تمهـل)" فالحيـاة تعـاش مرة واحـدة ، وإن أحسنـا الاختيـار عشنـاها بهنـاء، فالحب من طرف واحد كـأنك تنبـش عن الحيـاة في صحراء قاحلـة...كأنـك تريد غرس ياسمينـة في الوحل،

كـأنك تبحث عن المـاء في سحاب الصيف العابـر، وتنسى دائما حظك العاثـر، كـأنك الظـل وهي الجسم المتمايل على قـارعة الطريق يدوسـك كـل من مـر، كـأنك تولـد من جديد في كـل مرة تلقـاهـا، تصعقـك بملامس يديها الخائنـة، تذيبـك تقتـل حواسـك الخمسة لتبقى الحاسـة السادسـة والخطأ ، لتتوهـم أنها لن تتخلى عنـك، وبأنـك مَلِكهـا وحيـاتها....ثم مـا إن تمر لحظـات وتنصرف، يعود إليـك الحنين لرؤيتها مجـددا...كـأنـك الطفـل وهي الروض الفسيـح يغريـك بأن تلعب فيه فتتعثـر من الركض وتقـع ، يغريك عطرهـا فتتنفس بها ولها وحدهـا...وبعد سنيـن الركض تدرك كـم كنت غبيـاً فتصعقـك الحقيقـة المـُرة.

الساعة الآن الثالثـة وعشرون دقيقـة، توجهت جيـهان إلى صالة الحفـلات في أبهى حلـة، فاستقبلهـا رجـل في العقـد الرابـع وقبّل يدهـا، يبدو عليـه الثـراء والبـذخ، بديـن قليـلا، أشيـب الشعـر، وذو قـامـة متوسطة.

ــ لـم أتأخـر عليـك جئت في الموعد.

ــ إن تأخرت فسأنتظرك العمـر كلـه، أيتها الحسنـاء الجميلة، مـا هـذه الأناقـة

والجمـال.

ــ عزيزي، شكـرا لك.

ــ اتفقـت معهم على كـل شـيء، واخترت الورد ولـون شراشف المـائدات وإن لـم يعجبـك اختيـاري، سأرضى بذوقـك النـاعم.

ــ لا غيـر مهـم، هذا تبذيـر ولا أهتـم بالمواضيع هاتـه، فأنـا أراها سخيفـة جدا.

ــ أيتـها الرائعـة، كـم أحب المرأة المتـزنة والتي تفكـر بذكـاء وتحـافظ على رزق زوجها .... أنت مغرية بحق، قطعـة مـاسيـة فريدة من نوعهـا...كـم أنـا محظوظ بك يـا عزيزتي الصغيرة.

ــ لنـدخل ونرى

ــ تفضلـي

تدخـل للصالـة وهي تشـاهـد ترتيب الأشيـاء. وتتبجح وتتكبـر، مثـلت أمامـه دور الفتـاة القـانعة والمثقفـة ببراعـة.

ــ أنـا لا تهمنـي هذه الأشيـاء، بقـدر مـا يهمنـي أمـر واحـد، وقـد وعدتنـي

به.

ــ سأفعل كل ما تطلبينه، أعدك...لكن لا تفكري إلا في ليلة زواجنا رجاء، أريد الاستمتاع معك.

ــ اتفقنا.

ــ غداً نتزوج. وسوف نغادر لبنان إلى إنجلترا، هناك سترين الحياة الحقيقية، وستنسين كل ما عشته هنا، وتبدئين حياة جديدة.

ــ إن شاء الله...لكنني قلقة على عائلتي.

ــ رجاء دعينا نفرح قليلا، كل دقيقة عائلتي، عائلتي... أنا لم أتزوجك لأكون مقيدا كل ثانية ودقيقة بهم.... ولكن لا تخافي سأخصص لهم نفقة يعيشون منها ولن يحتاجوا شيئا.

ــ أتمنى هذا، وأتمنى السعادة لي ولك.

وضع إصبعه على شفتيها وقال:

ــ السعادة أنتِ من تصنعينها، حينما تفهمينني قبل أن أتكلم وتلبين مطالبي بلا تذمر، وتصونيني في حضوري وغيابي.

ابتسمت ابتسامة مصطنعة ببرودة محاولة إرضائه، هي قد حسمت أمرها واختارت مصلحتها والحياة الرغيدة المليئة باللهو والمال. من ستتزوجه هو رجل أعمال متزوج ومطلق ولا تعلم كم امرأة دخلت حياته لحد اليوم وهي أي رقم بينهم.

عاد ديميتري لفريد وهو يحمل إليه نفس الخبر فهو لم يكذب عليه، ولا يريد الكذب.

انزعج كثيرا وبقي يفكر طيلة الليل، وبالكاد قد غفت عيناه، وعاد ليفكر مرة أخرى...جيهان هي كل حياته قبل الحادث الذي تسبب في تشوهه جعله لا يخرج من المنزل...فبعد وفاة أمه بسنة كان معها في الإسطبل ودخلا ليريا فرسا قد ولدت في ظروف صعبة، وقد انقطعت الكهرباء ليلتها فنسي العامل الشمعة مضاءة في زاوية الإسطبل وسقطت لتشتعل النار بسرعة ولم ينتبه لها أحد حتى التهمت كل التبن الموجود داخل وخارج الإسطبل فلاحظ العامل النيران تتقدم نحوهم. صرخت جيهان التي كانت ترافق فريد وفي محاولة لهما لإطفاء النار سقطت عليه قطعة خشبية من

السقف أحرقت وجهه، كثر الصراخ في تلك الليلة من جهة. جيهان الخائفة من الموت والنار، ومن جهتها فريد الذي فقد وعيه، أما العامل الذي أمسك فأسا وأحدث فتحة في الجدار ليتمكنوا من الخروج وانتهى الأمر بتشوّه فريد.

سأل نفسه كثيرا...ما سر تلك الفرحة؟ وهل دخل حياتها حبيب يا ترى؟ ربما !!! فتصرفاتها توحي له بذلك.

في الصباح غادر جوزيف المنزل باكراً وراقب المنزل وأيضا لا حركة فيه.

وبينما كان يعيش توترا رهيبا وخوفا عليها، كانت هي ترقص وتحتفل مع عائلتها بزفافها، قدمته على الحب واختارت المال...جيهان فتاة في سن الثالثة والعشرين، طموحة جدا لا هم لها في الحياة غير العيش برفاهية وراحة، عيشة لا تعب فيها ولا نصب...مر هذا اليوم كسائر الأيام وعادت عائلتها للبيت وهي انتقلت لبيتها الزوجي....

أما فريد فقد اشتاق لها، ولكنه غاضب منها بسبب كذبها عليه، فإن كانت عائلتها غادرت للعزاء، عند من بقيت؟ ... أسئلة كثيرة تنتظر أجوبة

وسرعان ما سيعرف إجابتها، فالحقيقة لا تخفى. وها هو ذا يستمع للأخبار في المذياع لينسى توتره للحظات.

عاد ديميتري للبيت مسود الوجه وعلامات الحزن بادية على وجهه، دخل للصالون أين كان يجلس فريد:

ـــ سيدي

نظر إليه فريد وقد لاحظ الحزن على وجهه، فأطفأ المذياع وقال له؛

ـــ ما الأمر تبدو منزعجا؟

ـــ سيدي...جئتك بخبر

ـــ تكلم

ـــ ولكن عدني أو لا أنك لن تنزعج

وقف فريد واقترب من جوزيف وقال له بهدوء:

ـــ ديميتري.... تعلم أنني بلا صبر هيا تكلم، أفرغ ما في جعبتك.

دمعت عيني ديميتري

ـــ أي خبر تحمله لي، هل حصل مكروه لها أخبرني؟

صرخ في وجهـه...وديميتـري يرتجف

ــ بل تزوجت البـارحة يـا سيـدي.

صدم فريد بالخبـر ولم يصدقه، زارته وهي تبتسم له ابتسامتها الصفراء، في تلك اللحظة أدرك فريد أنه كـان فتـىً ساذجًا دبَّ فيه الغبـاء حتى صار جذوراً. لم تكن دموعـه كافيـة ساعتـها بل صرخ وكسر كـل مـا وجـده في طريقـه وديميتري يقف جانبـا يرجوه أن يهـدأ:

ــ أيعقـل أن تكون رخيصـة لهذه الدرجة!! تأخـذ مني مـالاً وتشتري به ملابسـاً لغيـري!! أين وضعت كرامتـها!! أين...آآآآآه... أيتها اللعينـة، أيتها الحقيرة.

ــ سيـدي رجـاء اهـدأ، هي لا تستحق طيبتـك، صدقني ستجـد امرأة تعوضك عن كـل النساء، اهـدأ...بني فلتهدأ.

جمع ديميتري كـل مـا حطمـه فريد ورتب المكـان. وقلبـه الأبـوي يتوجع لحالـه...دنا من باب غرفتـه وطرقه.

ــ سيـدي هل أنت بخيـر؟ أكـان عليّ أن أكذب عليـك؟ سيـدي أرجوك

أجب...رجاءً...هل كنتَ سترتاح إن كذبت...أشعر بالندم لأنني أخبرتك ما حدث.

بدأت معاناة فريد مع دوار الذكريات يفكر بها، لم يُقصر في حقها يوما، أيعقل أنّ من أحبها بجنون، بشغاف القلب تفعل به هذا الفعل؟!! لطالما سندها وحقق رغباتها لم تحتج يوما لشيء منذ أن عرفته...أغمض عينيه وغاص في عمق الذاكرة المجروحة، بين الماضي الجميل والحاضر القبيح والمستقبل المجهول. نام على دموعه وجراحه... وهو يرجو الله أن يكون حلماً وسيستيقظ منه ويجدها بجانبه...فالموضوع عصي عن الفهم.

الساعة العاشرة ليلا، فريد في مكتبه ينظر لهدايا جيهان ورسائلها، جمعهم ورمى بهم في المدفأة، احترقت كل ذكريات الخائنة، واحترق اسمها وماضيها الأسود، عيناه انتفختا من البكاء والحسرة واللوم والعتاب.

الشمس عندما تشرق على لبنان تزيدها بهاء وجمالا، إن الهواء فيها يعيد كل

شيء لـه حلاوة بالطفولـة، والشبـاب، والشيخوخة... وحتى الغروب لـه معنى على أرضهـا الحبيبـة تغرب الشمس وتسحب من القلـوب آلامـاً، ذكريـاتٍ سوداءٍ مخيفـة، حتى الشمس تدفـئ قبـور الأحبة ولا تنساهم، كم هي حنونة.

أخذ صورة والدته وتلمسها وهو يقول في نفسه:

ــ مضت سنتـان يا أمي وأنـا أبحث عنـك داخل هؤلاء النسوة ولازلت لم أعثر بعد على من تشبهك وتحمـل داخـل جسدهـا قلبـك، وحنـانك، وطهرك....لازلت أبحث يـا أمي، لازلت أبحث...تعثـرت اليـوم ولكنني سأتفـادى العثـرات مستقبـلا أعـدك....لن تتكرر وكـل شخص أبكاني لن أعود إليه ليبكينـي ويتفرج على نحيبـي مرة أخرى، سأتذكر دائما أننـي ابن المعلمة التي علمتنـي أن لا أعيـش نفـس الألـم وأصفـح، وأصفـح ليعود الغيـر وينبشـوا نفـس الجرح، لن أرضى أن أكـون ألماً أنتظر الدواء، بل سأكـون الدواء الذي يعالـج الألـم، ولن أعـامل النـاس بالمثـل، سأكـون مميـزا....انتهى كـل شيء يـا أمـي....انتـهى.

مـر شهر على زواجها وهـا هي تزوره بكـل وقاحة كـأن شيئـا لم يكـن...حاولت فتـح البـاب كالعـادة ولكـن المفتـاح لم يفتـح، فريد غيَّـر أقفـال البـاب، طرقت البـاب وطرقت ونـادتـه لا أحد يجيب:

ــ فريـد. فريـد

وقف فريد وراء البـاب دون حراك يصارع رغبتـه في فتـح البـاب والصراخ في وجهها بأعلى صوتٍ، ولكنـه في واقـع الأمـر يربـي بداخلـه قلب الطفـل البريء الذي يصدق ابتسامة كـل من يبتسم في وجهـه، هذا القلب الذي انكسـر وتوجـع سيبقى يذكـر الوجع لآخـر يـوم...لازالت تنـاديه خارجا بلا حيـاء.

ــ فريد حبيبـي أنـا جيهـان افتح البـاب، لا أستطيـع فتحـه، أيـن أنت؟ يا فريد.

مسح ديميتـري دموعه، ورغب أن يراه متزوجـا ولديه أبنـاء يلهونـه عن الوحـدة التي يعيشهـا.... غـادرت جيهـان واكتـفى بالصراخ وراء البـاب

بدموع منهمرة:

ــ اذهبي إلى الجحيم، أيتها الساقطة...أيتها الغبية اللعينة... فلتذهبي إلى الجحيم ليتني لم أرك.... أيتها الخائنة...الحمقاء...أتمنى أن تحترق مثلما أحرقت قلبي.

هي الدنيا تبكينا تارة وتفرحنا تارة أخرى تمتعنا، تكسرنا...لا نفهمها ولا نفهم سخطها ورضاها، أهي تربينا أم تعذبنا؟

سافرت جيهان مع زوجها وعاشت معه بين ألم وحرمان واشتياق للعائلة ولأرض لبنان التي ما غادرتها يوما، لقد وعدها أن ينفق على عائلتها ولكنه أخلف بالوعد وهي تظن أنها قد اختارت الأحسن، ومع الوقت ستكتشف أنها ظلمت شخصًا أحبها بصدق.

مرت خمس سنوات بسرعة وحال فريد لم يتغيّر يستمد طاقته من خادمه ديميتري الوفي الذي لم يتخلَّ عنه يوما.

٢١بيروت -كانون الثاني ١٩٧٣

يجلس بالقرب من الشرفة ويرتشف قهوته، يقف جوزيف ورائه ويقول:

ــ بخصوص موضوع الطبيب أمجد القاسمي الكدواني. فكرت به كثيرا ويبدو أنني قررت أن أخضع لعمليات تجميلية، ربما سأعود كما كنت وأحسن يا ديميتري.

ــ أرجوك يا سيدي، لا تضيع الوقت أكثر، اذهب وأعدك أنني سأرسل لك رسائل أخبرك فيها بكل الأخبار والأحداث...رجاء اذهب.... (يجهش بالبكاء). سيدي إنني أتألم لحالك، مضت سنوات وأنت محجوز في هذه الغرفة اللعينة، أما آن الأوان لترى النور.... رجاء اذهب. أريدك أن تعيش بسعادة وترى الحياة والعالم مع زوجة طيبة وأبناء يحبونك لا تضيع الفرصة أرجوك...إن قلبي يتألم لأجلك وأضف لهذا وضع لبنان المتأزم. اذهب.

يقوم فريد ويعانق خادمه:

ــ سأكلم الطبيب غدا أعدك. سأخطو خطواتي الأولى نحو النور، صدقني سأحاول لأجلك.

يغمـر الفرح قلب الخادم الوفي ويعود لعنـاق سيـده متناسيـا نفسـه، إنه الوفـاء، هذا العمـق المفقـود في أنفـس البعض. وفي تـلك الليـلة أمضى فريد كـل ساعـات الليـل في مكتبـه يرتب أو راقـا ويخبئ أخرى. ويفكـر في موضوع سفـره خارج لبنـان لإجراء عمليـة لوجهه.

الساعـة السابعـة صبـاحا ٢٢ كـانون الثـاني ١٩٧٣م....

يسمعون صوت الجرس.... يفتـح الخـادم جوزيف البـاب إنه الطبيب أمجـد القـاسمي يحمـل مظلـة ويرتعش من البـرد، الجو بالخارج مـمطر وبـارد:

ــ تفضل يـا سيـدي. أسعـد الله صباحك

ــ صباح الخيـر يا جوزيف، كيف حالك؟

ــ بخير الحمد لله على كل شيء.

يضع مظلتـه على الأرض لتجف ويعطيـه معطفـه ليعلقـه بجانب المدفـأة...

رجل في العقـد الخامس، طويل القـامة، وهـادئ الطبـاع. وأبيض البشرة.

ــ أين فريد؟

ــ ينتظرك في المكتب، تفضل (يأخـذه للمكتـب).

ــ صبـاح الخيـر بنـي، يصافحـه

ــ أهلا بك، شكـرا لقدومـك إلـيّ.

ــ كيف حالـك؟

ــ بخير وأنت؟

ــ كمـا تـرى لم أتغيـّر.

جلسـا...ثم قـال لـه الطبيب:

ــ ثق بي، سيكـون كـل شـيء على مـا يـرام، لقـد انتشرت عمليـات التجميـل خـارج الوطن وهي نـاجحة جـدا، اذهب وسترى بـأم عينـيك حجـم التطور الحاصل عنـد الغرب، هم ليسوا مثلنا، إنهم عالم مختلف؛ تطوروا واستغلوا التطور هذا في كل المجالات.

ــ أتمنى هـذا، قبـل أن نتحدث، أتحب الشـاي أم القـهوة؟

ــ أريد الشاي.

ــ أو مأ فريد لجوزيف بإحضار الشاي لضيفه.

انصرف جوزيف وأكمل الطبيب كلامه:

ــ لقد راسلت صديقا لي في فرنسا وهو طبيب ناجح جدا سيستقبلك فور وصولك، ويأخذك للطبيب الذي سيرى حالتك أو لا ثم يقرر كم عملية سيجريها لك.

ــ إن شاء الله

ــ ستغادر لبنان هذا الأسبوع، لا تضيع الوقت كثيرا. فأنت لازلت شابا وأمامك الكثير لتفعله.

ــ قررت الذهاب؛ اطمئن لن أغيّر رأيي.

يدخل جوزيف حاملاً الشاي لهما

ــ تفضلا.... سيدي سأغادر، لدي عمل وسأعود في المساء أتأمرني بشيء قبل أن أنصرف؟

ــ لا شكرا، خذ سيارتي لكيلا تتعب.

ــ سأفعـل

خرج جوزيف وأقفـل البـاب وراءه، قدم الطبيب وثائق تخص العملية قائلا:

ــ احتفـظ بهـم، لأنـك ستقـدمهم لطبيبـك في فرنسـا، كـل الفحوص التي أجريتها لدي موجودة هنـا.

ــ أشكـرك من كـل قلبـي

ــ إن أو ضاع لبنـان مضطربـة قليـلا، الوضع لا يطمئن بالخيـر أبدا. فحسب مـا يقولـه لي صديقي سالـم أن الأحزاب تكيـد لبعضها البعض في الخفـاء...نسأل الله الخير لهذا البلـد.

ــ أتمنى الخيـر للكـل...تفضـل هذا ثمـن تعبـك.

ــ لا أنت بمثابـة ابن لي ولن آخـذ منـك شيئـا.

ــ لقـد تركت عيـادتك وأتيت إلـيّ فلتـأخذه رجاء؛ ستحتـاجه.

ــ بني فريد، إن والـدك كان صديقـا وفيـا لوالدي وقـد غمره بعطفـه وطيبته، وكان رجلا شهمـا، لم يترك أحـدا محتـاجا أبدا، رغم مـا يقولـه البعض أنه زير نسـاء، إلا أنه يحمل الإنسـانية بقلبـه ولم يكن سيئـًا...سأغـادر الآن وأنت ركـز

على سفـرك ونجـاح العمليـة، ورجاء طمئني عليـك كلمـا خضعت لعمليـة.

ــ إن شـاء الله.

ــ اعتنِ بنفسـك، وسأراك قبـل مغـادرتك لبنـان

ــ أكيـد... تفضل.

حمـل الطبيب حقيبتـه وخرج من المكتب بصحبـة فريد أعطاه معطفـه، ارتـداه وأخـذ مظلتـه وخرج مسرعـا نحو سيارته أغلق فريد البـاب وذهب لمكتبـه.

فرنسـا هي بلـد الإتكيـت والتحضر، لـم يسافـر إليـها قبـلا ولكنـه زار مع والـده تركيـا وقبرص... رحلـة جمعت الأصدقـاء من كـل بلـد لـم يستمتع برفقتهم فمعظمهم كانوا كبـارا في السن وجُـل حديثهم عن النساء وعلاقـاتهم الشـاذة معهن...اشتـم فيهم رائحة الخيـانة والخبث...لا أحـد وفـيٌّ لشريكه لا أحـد، عهد الستينـات الذي دخلـه التحرر والانفتـاح على الحضارات الأوروبية، حتى ملابسهم أو روبيـة مقلـدة محليـة الصنع.

حزم حقائبـه وودع ديميتـري الـذي بكى بحزن فراقـه، وقـد كـاد يصيبـه الخرس من نحيبـه.

ــ اهتم بنفسك ولا تنسى ما أو صيتك، به كن بخير دائما، ومهما انقطعت الرسائل بيننا لا تخف عليّ سأكون بخير... سيزورك المحامي نجيب آل خولي ليحدثك في موضوع ما. كن عاقلا وتقبل الفكرة.

ــ أي فكرة يا سيدي؟؟

ــ ستفهم كل شيء في وقته. هيا عدني أنك ستنجز كل ما طلبته منك.

ــ لن أعدك بشيء إلا إذا وعدتني أنت.

ــ بماذا أعدك؟

ــ عدني أن تبحث عن السعادة. أن تبحث عن زوجة طيبة تحبك وترعاك. سيدي لا تقفل الباب في وجه الفرح رجاء، أرجوك بغلاوة والديك.

ــ أعدك... مع السلامة.

عانقا بعضهما بحب وقوة، ثم ركب فريد سيارة الأجرة وغادر وهو يلوح بيده له حتى غابت السيارة عن النظر...وما كان من جوزيف إلا أن يركض وراء تلك السيارة السوداء وهو يناديه بأعلى صوت:

ــ سيدي لا تعد إلا وأنت متزوج، ومعك أطفالا...سيدي...سأنتظرك

يـا سيـدي بفـارغ الصبـر...يا رب استودعتـك إيـاه فاحفظه وعوضه عن كـل يـوم أضاعه من عمره هنـا حزينـا وحيـدا.

كـانون الثـاني هو موسـم الأمطار والثلـوج، ووقتها لبنـان أضحت تعـج بصراعات داخليـة بين فئـات تريد الدمـار للوطـن وفئـات تريد الإعمـار. ومـا سيحصل لهـا مستقبـلا بسبب خيانـة البعض لهذه الأرض المثمـرة والأم الحاضنـة للجميـع أحيـاء وأموات...لبنـان بلـد الخيـر، رمز السـلام، بلد كـل الديـانـات، لن تنهزم وستقف في وجه كل الفتن.

في كل صباح يتصل ديميتـري بفريد يحكـي له عن كـل التغيرات والأحداث ويطمئن عليه... وقد قرر طبيبـه الفرنسي إجراء عمليـة لـه بداية آذار بعد أن أجرى عدة فحوصات...فريد خائف من شيئـين...أن تفشـل العمليـة أو يموت على سريره وحيـدا، في بلاد غريبـة.

بعد أسبوع من سفـر فريد زار المحامي نجيب آل خولي ديميتري في المنـزل وقـرأ على مسمعـه مـا أوصى به قبـل مغادرتـه أرض لبنـان:

ــ سيـد هـاني جوزيف الرمزي السيـد فريد كتـب كـل ممتلكـاتـه لك في حالـة مـا إذا توفـاه الله.

وضع جوزيف يـده على فمـه من الدهشـة، فهو لـم يتوقـع هذا الأمـر أبدا وسلمـه رسالـة موقـعة وغـادر.

عزيـزي ديميتـري أو أقـول (أُمُ الأرض)..كنـت بمثابـة والـدٍ لي يرعانـي طـوال أيـام تعبـي ويأسـي... وأشبه بأمي التي تسألني عن الأكل والشرب والنوم، لا تبكـي أعلـم أنك طيب جدا ولا تحب أن ترانـي تعيسـاً، أضيع شبـابي في بيت كئيـب حزين لم يكتب له الفرح كسائر البيـوت، كتبت لك كـل ممتلكـات والدي، لك وحدك لأنك تستحق كـل الخيـر ولا تهمنـي ديـانتـك فأنت إنسـان يحمـل كـل الإنسانية والحب داخلـه...ولا تغضب مني على هذه الوصيـة وسامحنـي لأنني أتعبتـك معي لسنـوات أطلب منـك السمـاح والصفح، وأرجو أن تزور قبـريّ والـدايّ وتدعـو لهمـا بالرحمـة، وإن حدث لـي مكروه أثنـاء العملية أعد جثتـي إلى لبنـان وادفني بالقرب من والـداي....اهتـم بنفسـك رجاء.. ابنك فريد.

بكى جوزيف كثيرا، فهو يفتقده ويريده أن يعود بخير في أحسن حالاته وأن يكمل حياته بشكل عادي مثل الناس بلا عُقد ولا هموم، مع عائلة تحبه بصدق.

لم يستمتع فريد بجمال فرنسا. ككل زائر أمضى معظم الوقت في قراءة الكتب والجرائد والاستماع لأخبار لبنان عبر الراديو. لأن موضوع العملية هو ما يؤرقه، ويقلقه... هل ستنجح؟ وهل سيعود إلى بيروت بخير؟ تحدث مطولاً إلى طبيبه الفرنسي "بيرنارد بايسونيل " وأكد له أن الأمور ستكون بخير فلا داعٍ للتوتر...وأعلمه بأنه سيجري له عمليتين لإعادة وجهه كما كان... ارتاح فريد للخبر، فحسب كلام الطبيب أنه سيعود لطبيعته أعاد له جزءا من فرحٍ غاب عنه طويلا...لم يخفي دموعه. وحاو ل جاهدا إخفاء ألمه وتماسك قليلا، لكنه فشل. بكى بكاءً لم يره ذاك الطبيب الفرنسي في وجوه مرضاه، بكاء المحروم من الحرية المظلوم، تعاطف معه، وخفف

عنه، ودعاه للسهر في نادي**Moulin Rouge** الذي يرتاده أناس مثقفون. وكالعادة لا يحب الظهور بوجهٍ مشوه كي لا يخيف الناس.... ولكن الطبيب بيرنارد أصر عليه فما كان منه إلا تلبية دعوته الراقية، جهز فريد نفسه ووضع شاشا على وجهه وخرج. نزل سلالم الفندق فقابله عامل يخبره بوصول سيارة تقله لوجهته...ركب السيارة وغادر، فرنسا ليلاً تبد ولكل زائر كقطعة زجاجية متناثرٌ زجاجها اللماع في كل مكان. شوارعها الراقية وتحضرها، أغراه منظرها. فبادرته فكرة دخيلة بالبقاء فيها لمدة من الزمن...أحس أن السهرة ستكون دواء لقلقه، ونصح نفسه بالاستمتاع قدر المستطاع وإفراغ رأسه من الأفكار السلبية، وصل للنادي وألقى نظرة استطلاعية خفيفة على المكان ورحب به المسؤول:

ــ أهلا سيدي...نتمنى لك سهرة جميلة. تفضل.

ــ أشكرك

هي لا تشبه لبنان.. جميلة.. هادئة.. مرحة...هوائها يشفي المتعب، ولكن هنا لا ذكريات لأناس خذلوه وأبكوه... لم يتوقع فريد أنه سيلتقيها يوما

مـا، ربما ستطارده ريحها الخائنـة مستقبـلا، ربمـا. من يـدري. ؟،سـأل عن الطبيب إن كان قـد حضر فأخبره النـادل أنه موجود وأشار إليـه... يجلس برفقـة زملاؤه...ألقى التحيـة عليهم ورحبـوا به ترحيبـاً عربيـاً يليـق به، فأحس بالفخـر لانتمائـه للدمـاء العربية...قـال الطبيب ممـازحا فريد:

ــ يحتـاج حبيبـة فرنسية تخفف عنه الألـم. أنصحك ألا تفوت الفرصة بالاستمتاع وألا تحـرم نفسـك من المتعة، فالحيـاة قصيرة.

ضحك الجميـع فقـال الطبيب "لويـس شرمان":

ــ لا أخفي رغبتي الجامحة في مواعـدة فتـاة عربية. فالفتيـات العربيات جميلات جدا لا يحتجن مساحيق التجميـل، يكفـي الكحـل العربي الذي يزيدهن سحرا وأنوثـة وجاذبيـة. هن الإغراء بحد ذاتـه والشهوة والنشوة، هن جذابـات ويثرن الفتنـة ويفتكن بغرائزي...

أحـس فريد بالخجـل من جرأة بعض الكلمـات الشارعية التي لـم يتعود سماعها في المجتمع الشرقي المنغلق فتجاهل الرد عنه...فقـال:

ــ إنها الزيارة الأولى لي إلى فرنسـا، وقـد أغرتنـي بعض الأمـاكن لإطالـة البقـاء

هنـا.

شـاطره الطبيب "كلـود دوهـاميـل" الرأي وقـال:

ــ فرنسـا جميلـة وستتعلق بها، وقـد تعيـش فيها لآخر أيـام حياتك.

انتبه الطبيب بيرنـارد أنه لم يطلب لفريد شرابـا خاصـا:

ــ نسيت أن أسـألك مـاذا تشرب؟ أعلـم أنكـم أنتـم العرب لا تشربون الخمر. فلذلك سأطلب لك عصيرا.

أشـار لنـادل قريب منه أن يـأتي وقـال:

ــ احضر لضيفي كـأس عصير

نظر الطبيب" أميـل كاريـل " إلى فريد وقـال بمكـر:

ــ لا أعتقـد أن كـل العرب لا يشربون. فلي أصدقـاء عرب يعشقـون الخمـر ورائحتـه، وأحيـانـا يشترون الخمـور من هنـا ويأخذونها إلى موطنـهم !!! ربمـا يغتسلـون ويتوضأون به.

أجابـه فريد بلطف قائـلا:

ــ يوجد أنـاس لدينـا دمـاؤهم ليست عربية للأسف.

انزعج الطبيب أميل كاريل وابتسم بخبث، أحس فريد من كلامه أنه عدائي ويكره العرب، ويُكِن لهم ضغينة عظيمة، هذا ما فهمه من كلماته الملغمة. ولكن طبيب العيون الشاب "خوستاف ويكهام" قال:

ــ ليس كل الناس أتقياء أنقياء.هناك الأحسن وهنالك الأسوأ...في كل مكان حول الأرض.

ربت الطبيب بيرنارد على كتف فريد وقال:

ــ أعرفك على أصدقائي في المستشفى سابقا، كنا نعمل معا، واليوم لي عيادة خاصة وأدرب فيها أطباء. ونلتقي كل نهاية أسبوع هنا للسهر وللمرح...هذا طبيب القلب "رينييه فوشارد"

ــ أهلا بك معنا.

ــ أهلا.

ــ وهذا أيضا طبيب عمليات التجميل "أوغستين موراكس"، أما هذا طبيب التخدير "أميل كاريل"، وهذا طبيب العيون "خوستاف ويكهام" وهذا طبيب أمراض الصدر "كلود دوهاميل " وأخيرا الطبيب "لويس

شيرمـان" وهو طبيب الأطفـال.... الاخ فريد من لبنـان ولقـد أتى لإجراء عمليـة لوجهـه.

طمأنه الطبيـب " أو غستيـن موراكـس" قائـلا:

ــ كـن مرتـاحا وأنت بين يدي الطبيب بيرنـارد، فهو طبيب مشهور، وقـد أنجز عدة عمليـات تجميلية ونجحت. وأحيانا نلجـأ إليه لنتعـلم من خبرتـه الطويلة.

ابتسـم فريـد وأحس بالثقـة تعود إليـه، كان بحاجة مـاسة للخروج من جوالبيـت الكئيب، وعلم بداخلـه أن حيـاتـه ستتغيـر للأفضـل.

قـال بيرنـارد وهو ينظر لعينـي فريد:

ــ ولكي تكون أكثـر اطمئنـانـا وتقوم باختيـار طبيب تجميـل لديه خبرة في علاج حالتـك فإن هذا يتـم اعتماداً على عدة عوامل، اسـأل هل تعامل الطبيب مع أنـاس في نفس حالتـك وقـاموا بنفس عمليـة التجميـل من قبـل؟ هل يمكنـه تزويدك بمريض آخـر يمكنـك التواصل معه لأخذ رأيه في العمليـة التي أجراها مع الطبيب؟ هل هنـاك آراء سلبية عن الطبيب كتبها من أجروا العمليـات معه؟ هل الطبيب في مكان منـاسب لك؟ عنـد ذهابك للطبيب هل

فحص حالتك بدقة مثلما كنت تتوقع؟ كل هذه النقاط مهمة في تحديد أفضل طبيب تجميل في فرنسا، من المهم ملاحظة أن هناك أطباء كفاءتهم عالية لكنهم غير مشهورين للأسف، ولن أجري لك العملية وأنت غير مستعد لها فهذا سيؤذيك ولن تنجح طالما أنت قلق، تخلص من القلق وفورا.

ــ أنا مطمئن لكلامك وأثق بخبرتك، ويكفي أن الطبيب أمجد الكدواني أكد لي أنك طبيب ذو خبرة عالية.

ــ ينبغي أن أراك يوم العملية بكامل صحتك وكلك أمل ورغبة في الحياة، وأرى أنك تحسنت منذ جئت إلى فرنسا.

ابتسم فريد وشكره وأمضوا سهرة جميلة مع بعضهم.... وتحدثوا عن مواضيع شتى، سياسية، واقتصادية، وثقافية...الخ

في الصباح أجرى فريد اتصالاً هاتفا مع المحامي نجيب الخولي. وزوده بمعلومات حول مصنع والده ونسبة الأرباح والخسائر، وعن وضع

العمـال وأمنه على ممتلكـاتـه إلى أن يعود للبنـان بخيـر. ثم اتصل بجوزيف المتلهف لرؤية وجـه سيـده.

ــ صباح الخيـر جوزيف، كيف حـالك؟

حينمـا سمع جوزيف صوت فريد أجهش بالبكـاء...وراح فريد يخفف عنه ويمـازحه.

ــ تكـلم لا تقـل إنك بعت البيت في غيـابي، ولا تبـذر المال أعلـم أنك قـد أفلستني يا رجل.

ضحك فريد من قلبـه، فـأحس جوزيف أن سيـده تغيـّر وأنها بوادر خيـر، قـال لـه:

ــ اشتقت إليـك أكثـر من شوقـك للبنـان، البيت بدونك لا روح فيـه، لا يساوي شيئـا.

احمرت عيناه ولاحت دموعـُه، وبـادلـه نفـس الشعور. بخجـل:

ــ حتى أنـا، هـل تفعـل مـا أمرتـك بـه؟

ــ أجـل أفعلـه كـل شهـر.

بوركت يـا جوزيف. فلتعتنِ بنفسـك، سأكلمـك قبـل موعـد إجراء العمليـة، وإن احتجت أن تكلمنـي فرقـم الفنـدق مدوّن عنـدك ورقم الطبيب؛ لا تتردد أبدا فأنت كل ما بقي لي.

ــ سيـدي.

ــ نعـم.

ــ لا تنسَ الوعـد الـذي بيننـا.

.ــ وعدتـك أننـي سأبحث عن السعـادة، لن أنسَي فكـن مطمئنا.

جوزيف كـان يعـدّ لفريد مفـاجأة، إذ إنه قام بتغيير ترتيبات البيت وطلاء الجدران، وقـام بإصلاحات في المزرعـة، هذه الإصلاحات التي كـانت متوقفـة منذ أن توفيت سيـدة البيت المعلمـة الراقيـة ابنة بعلبـك، والتي توفيت يـوم ٥ تمـوز ١٩٦٦. زار قبريهمـا وطمأنهمـا على ابنهمـا. ونقـل إليهمـا أخبـاره كلهـا.

وأخيـرا قـرر الطبيب بيرنـارد موعـد إجراء العمليـة بداية آذار ١٩٧٣م ... بدأ الخوف يخفق في داخلـه والرهبـة والرغبـة في ترك كـل شـيء والعـودة إلى

لبنـان فورا، ولكنـه تشجـع ووقـع على أو راق العمليـة. واستـأذن الطبيب بإجراء مكـالمة قصيرة.

ــ جوزيف سأجري العمليـة بـداية آذار. تمنّ لي حظـاً موفقـاً. أكلمـك عنـدما أصل للفنـدق تحيـاتي.

الحيـاة علمتـه الكثيـر، علمتـه ألا ييـأس وأن يبحث عن مخارج وحلول لمشكلاتـه، ولا يتهرب ويغلـق الأبواب في وجهـه، ويسجن نفسـه في غرفـة مظلمـة... وأكثـر شيء نـدم عليـه فريد، أنه أحب فتـاة لا تستحق منه نظـرة...وتمنى لو أن والدتـه بقيت بجواره تحتضنـه وتدعمـه. لـم يبـقَ لـه في الوجـود أحد غيـر جوزيف الوفي والمخلص.

زارت امرأة في العقـد الأربعين بيت فريد في لبنـان وسألت عنـه، لكـن جوزيف أخبـرها أنه خارج لبنـان وسيتـأخر في العـودة...ولا يدري إن كـان سيبقى سنـة أو سنتـان أو أكثـر. وطلبت رقم هـاتفـه ولكنـه رفض وطلب منها هي رقـم الهاتف...دونت له رقمـاً على ورقـة وغـادرت... تساءل من تكـون؟

ومـاذا تريد منـه؟

تزينت شوارع بـاريس بالثلـوج، واكتسـت ثوبـًا أبيضًا جميـلًا جعـل كـل العشـاقِ يخرجون للاحتفال، أما فريد فكـان يطل على المنظر من وراء النـافـذة، بدأ يتعود على الأجواء والنظام ذاك، ويبـدو أنه حسـم أمره بالبقـاء، لقـد ارتـاح في فرنسـا وليس حبـًا فيها، وإنـما هربـاً من ذكريـات أحزنتـه...بالنسبة لـه لـم تعـد موجـودة، مـاتت منـذ زمن...هكـذا كتبـت له الأقـدار.

تنـاول فطوره البـاريسي، وأخذ الجريدة يتصفح الأخبـار...ثم هم بالخروج. ارتدى معطفـه الصوفي وغـادر... باريس مدينـة النـور، مجرد التجـول في شوارعها بكـل مـا تحتويه من زخم فني وثقـافي هو في حد ذاتـه تجربـة رائعة لا يمكن حدوثها في أي مكان آخـر من العالـم، يفـر الظلام منها، هذه المدينـة الساحرة التي سلبت عقـول النـاس على مـر السنين، مدينة الرومـانسية والفنـون والفكـر المتحرر، جوهرة فريدة من نوعـها، تشتهر باريس بألقـاب عديدة، فتسمى بعاصمـة الموضة، ومدينـة الحب، ومدينـة النور، لقب حصلت عليه كونها أشهر مراكز العلـم والفكـر أثنـاء عصور التنوير، ولاستخدامها

نظام إنارة الشوارع المبكر، وقد عرفت باريس بهذا اللقب أو اخر القرن التاسع عشر عندما قام البارون "هو سمان " أيام نابليون الثالث بإزالة الأحياء والشوارع التي ترجع للعصور الوسطى وحول العاصمة إلى إحدى المدن الأكثر حداثة في العالم.

تمشى فريد حتى تعب فاشتم رائحة القهو ة تنبعث من أحد المقاهي، دخل وجلس قرب طاولة تطل على الشارع، اقتربت منه فتاة عشرينية وقالت له بلطف:

ــ ماذا تشرب يا سيدي؟

ــ أريد فنجان قهوة من فضلك.

حدثها باللغة الفرنسية، وعندما عادت تحمل له صينية القهوة سمعته يقول:

ــ يارب سهل لي ولا تعسر.

تفاجأت وسألته:

ــ من أين أنت؟

ــ أنـا من لبنـان يـا آنسـة.

ــ وأخيـرًا وجدت عربيـًّا هنـا، كم أشتـاق لرائحة العرب.

ــ هل أنت عربيـة؟

ــ نعم، من تونس يـا سيـدي، وأنـا أدرس الفنـون الجميلـة هنـا.

ــ تقيميـن لوحـدك، أم مع العائلـة؟

ــ أنـا أعيش في منزل خالـي، فهو يقيـم منذ زمن هنـا.

ــ سررت برؤيتـك

ــ اسمي زينب.

حـدق إليها بعين واحدة، وهي تمـد يدها لتصافحه، تردد في مصافحتها، فسحبت يدهـا ولكنـه مد يده إليها وصافحها، كانت يدها دافئـة جدا، أمـا يـده فقـد كانت متجمدة من البرد...وبتلقـائية بريئـة حاولت تدفئـة يده ولكنـه سحبـها بقوة...أحست بالخجل وغـادرت...كان قـد مر عليه داخـل المقهى قرابـة الساعة...وهو يقـرأ مجلات وجرائد مرتبـة بعنـاية على الطاولـة...وحين

هـم بالمغـادرة. أبصرها تنظر إليه، أو مـأ لها أنـه مغـادر وخرج فاقتربت من الطاولـة وسحبت فنجان القهوة. ترك لها المـال ومعـه قصاصة صغيرة قطعـها من جريدة...قرأتها وابتسمت، واحتفظت بهـا في جيب سترتها.

الحب قـد يأتينـا صدفـة خير من ألف موعد وموعد، الحب قد يأتينـا متأخراً فيدب فينـا بسلام وأمان، فالأشيـاء الجميلة تأتي متأخرة وتأتي بحلاوة بعد أن نفقـد الأمل... زينب فتـاة تونسيـة جذابـة بشعرهـا الأحمر والقليـل من النمش على وجهها... تشبـه زهرة " أليستروميريـا " في فصل الربيع المزهر المزدهر...وذات عينـان نـاريـتان تشـع منهما الحيوية والأمـل والبراءة...تنهي عملها بعد الظهر وتذهب لمعهد الفنـون الجميلـة لتدرس وتعود لمنزل خالـها متعبـة مرهقـة، فتشـارك زوجة خالهـا في ترتيب المـائدة وغسـل الأواني.

تمتعت زينب بصفـات أنثوية رائعـة، مرحة تمتـلك روحا ملائكيـة تجعـل كـل رجـل يهواها بلا نـدم، أحبت الرسـم والرقص الشرقي، ولها ميـولاً ورغبـة في زيارة إحدى دول الشرق الأوسط بعد إنهـاء دراستـها...زينب من عائلـة

متوسطة الدخل تعيش في تونس وهي الفتاة الوحيدة بين ثلاثة إخوة ذكور، محبوبة من الجميع ومدللتهم.

عاد فريد للفندق وقد أجرى اتصالا مع صديق الطبيب أمجد الكدواني، ليبحث له عن منزل يستأجره في ضواحي باريس، وبعد مرور أسبوع انتقل فريد للعيش في منزل بسيط ومتواضع ككل مغترب؛ وقد تعرف على جاره الذي يحب الحديث عن كل أمور الحياة، سياسية ورياضية وتاريخية. ربما لأنه لا يجد من يستمع إليه فالغربة شيء مزعج، وذات مساء صادفها تصعد السلالم إنها زينب، تفاجأ لهذه الصدفة الجميلة، وتساءل ماذا تفعل هنا؟ لم تره لأنها انشغلت بقراءة رسالة، مرت بجانبه كأنها طيف ملاكٍ ساحرٍ، غادر هو على استحياء وواصلت هي صعود السلالم...وظل فريد يشم عطرها في أرجاء الغرفة، أمسى متوترا لا يعرف ماذا يحدث له يذهب نحو الباب ثم يعود، وذات صباح خرج ليشتري أغراضا للبيت فالتقى بها، لقد رأته، وتذكرته صاحب القصاصة، ابتسمت وراحت تقترب منه بعفوية وطهر محافظة على المسافة بينهما وبصوت خافت دافئ قالت:

ــ هذا أنت؟ صباح الخير، هل تعيش هنا؟ لم أرك تخرج من هنا منذ قدمت أم تزور شخصا ما؟

ارتبك وأجابها خجلا:

ــ انتقلت للعيش هنا حديثا.

ــ أحقا؟

قالتها بفرح عظيم، نظر إليها وكأنها تعرفه منذ زمن مستغرباً لهجتها، أعجبته اللهجة اللبنانية الممزوجة بكلمات تونسية وفي كل مرة تحاول تعديل كلماتها كأن تقول له أنتِ، بضمير الأنثى ثم تصلح الخطأ وتعود وتقول له: آسفة أنتَ.

ــ أستأذِنُك لدي عمل الآن.

ــ انتظر.

نظر إليها فقالت:

ــ أحب لبنان جدًا وأتمنى زيارتها.

ابتسم وقال:

ــ حتى لبنـان تحبك وستسعد بزيارتك.

ــ شكراً.

غـادر. أمـا هي فقـد احمرت خجلاً ولم تخفِ توترها أمامـه، اشتـرى فريد مـا ينقصه للبيت الجديد وعـاد ليغلق على نفسـه باب غرفتـه...الساعة تشيـر إلى الواحدة والنصف صوت طرق على البـاب...قـام ليفتح، إنها زينب أحضرت له طبقـاً فيه أكـل وبكـل تلقائيـة أعطتـه له، ولم ينتبه إلا والطبـق في يده:

ــ تفضل، هذا أكـل تونسـي أرجو أن يعجبك.

ــ أشكرك.

ــ مع السلامة لـدي امتحانات تمنى لي النجاح.

ــ أتمنى لك النجاح، بالتوفيق.

ــ أيمكن أن أسـألك سـؤال؟

ــ تفضـلي.

ــ مـا به وجهـك؟

انزعج فريد وأغلـق البـاب في وجهها، فانسحبت زينب في صمت، بعد برهـة

عـاد ليفتح الباب لكنـه لم يجدها، أحس أنه قسى عليها كثيـراً، وفي المساء كان يراقب وصولها من نـافذة غرفتـه...أطلت من الشارع تمشـي لوحدها، فسارع نحو البـاب وانتظرهـا وهو يحمل الطبـق، ارتبـك فريد عندمـا رآها وبسـط يده إليها، اقتربت زينب منه وأخذت الطبق وهمت بالانصراف ولم تلق التحية. نـاداهـا بصوت خافت خجـل:

ــ زينب.

توقفت زينب ونظرت إليه:

.ــ احترق وجهي بالنـار منـذ سنوات.

دخل مسرعـاً وأغلق البـاب، أخذ نفسـاً عميقـاً وأحس بتسارع في ضربـات القلب، أما زينب تعاطفت معه وأحست بتأنيب الضمير، كيـف خطر ببالها طرح سؤال كهذا. أمضت ليلتها تفكـر فيه وتعاتب نفسها وتتحدث لوحدها، مؤلم ما مـر به، وفكرت في الاعتـذار منـه، وفي صبـاح اليـوم التالي نزلت زينب مسرعة نحو بيت فريد طرقت الباب ولكنـه لم يفتح انتظرت قليلاً وانصرفت إلى عملـها.

أنهى فريد أو راق بقائـه في فرنسا وراسل المحامي نجيب آل خولـي، وفي المساء وجد زينب في انتظاره عند باب منزلـه، أعطتـه علبـة وتمنت له ليـلة سعيدة وانصرفت، دخـل لمنزلـه وفتح العلبـة بسرعة كطفـل متلهف لمعرفـة مـا فيها، اشترت لـه شالاً صوفيـاً باللون الأسـود، وتركت لـه قصاصة مكتـوب عليها "أعتــذر منــك".

ابتسم ووضع الهدية في درج المكتب وجلس يفكـر فيها، ويكلـم نفسـه ويبتسم كمن فقد عقله...أي إحساس هذا الذي يدخلـه رويـداً رويـداً، أهو إعجـاب أم شـيء آخـر؟ أهو الحب يـا ترى تسلل إليـه كاللص ولن يتـرك فيه جزء إلا وبعثـره؟ ولمـاذا ترجف نفسـه كلمـا رآهـا؟!!، أهو الخوف من الحب والفشـل؟ أم التفـاؤل بغد أفضـل؟!! الحب يبدأ بإعجـاب، بابتسامـة ساحرة، بتحية عـابرة، باهتمـام يوَلـد الرغبـة في المرء ويغويه حب التملك. بدأ يسترجع صورتها، شعرهـا الأحمـر، خجلهـا. تبدو زينب لـه فتـاة لا تشبـه الفتيـات فهل سيفتح باب قلبـه مرة أخرى أم أنـه سينسحب بعد خيبـة حب جارفـة حارقـة؟ اقترب موعـد العمليـة وزاد توتره، أسبـوع واحد يفصلـه عن الحيـاة الجديـدة،

حيـاة بلا حزن سيعود كمـا كان شابـا وسيمـا لا يعاني من النقص، دعتـه زينب لتنـاول الغداء معها، ولبى دعوتها، كان بحاجة للحديث لإفراغ تعبٍ يقبـع داخله يثقل عليه، تحدثـا مطولاً وقد استمتع بصحبتها، ودار في مخيلتـه سؤال "ألا تخاف زينب من مرافقـة رجل مشـوه؟؟ ثم مـاذا تريد منه من كـل هذه الحركات المغرية؟ فغنج المرأة يُفسـر حبـاً، أهو الإعجاب يشدها إليه، وكيف لأميـرة أن تحب وحشـاً يرهب وجهـه كـل من يراه. كان صراعا داخليـا، لم يهدأ مـنذ أن عرفهـا...كم من سؤال طرحـه في قرارة نفسـه وأجاب ورفض؟ وكـم من الوقت سيأخـذ هذا الإعجاب ليتحول إلى حب، إلى ارتبـاط أبدي؟ أم إنها أضغاث أحلام لا تأو يـل لهـا، وهل ستكون علاقـة ماليـة كسابقتـها، أم ستكـلل بالوفـاء والصدق.

عرفتـه بنفسـها، وبعائلتها، وبمدينتها صفـاقس التي تحبـها جدا كحبـها لوالديها، فريد يكبـر زينب كثيرا، فقـد تفهم حماستها وحديثها المطول معه بلا ملل وأفسح لها المجال لتتحدث بأريحية تامة.

ــ في الأسبـوع القـادم لن أكـون موجودا في المنـزل.

ــ هل ستعود إلى لبنـان؟

ــ لا، ولكن لدي عمليـة تجميليـة لوجهي، أطلب منـك أن تصلـي وتتمنـي لـي الشفـاء

ــ أيمكنني زيـارتك في المستشفـى؟

ــ هي عيـادة الدكتـور بيرنـارد بايسونيـل، سأعطيـك عنوانـها لاحقـا

اقتربت منـه ووضعت يدهـا على يـده وقـالت:

ــ عدني الآن، أنـك ستكـون بخير.

ــ سأحـاول أن أكـون بخيـر.

ــ هل ستزورك عائلتـك؟

ــ أنـا يتيـم لا أحد ينتظرني.

ــ إذًا سأكـون أنـا عائلتـك كلهـا...أمـك، وأختـك، ووالـدك طبعـاً إن أحببت.

أحب فريد تـلك الكلمـات، واخترقت قلبـه، كـان بحاجة مـاسـة لطرف يسـانده، طرف شريف ينسيـه مـا مـر بـه مـن محن، فقـد أحست زينب كـم

كـان مغلوبـا على أمره، وكـم هو بحاجـة لقرب ينسيـه الوجـع، ويكـون كـل عالمـه.

ــ ترغبين أن تكـونـي كـل عائلـتي؟

ــ أجـل

كـانت عينـاه تتلألآن عشقـا بها، سحـرا فيها يجذبـه كـل ثانيـة، يغويه، يوحي لـه الاقتراب منها أكثـر فأكثـر، يطلب منه امتلاكها بأنانيـة، كيـف لا فهي ساحرة الكلمـة، من بسطت سرهـا وحبهـا وسلطتها عليـه في أيـام معدودات، استطاعت ببراءتها إلغـاء كـل الماضي. وسجنـه في الحاضر ليكـون مستقبلها الوارع.

قبـل موعـد العمليـة بيـوم، أراد فريد أن يحدث زينب فدعاهـا لمنزلـه ليريها وجهه المحروق خوفـا من عدم نجـاح العمليـة، دخلت وهي تنظر إلى وجهه المشـوه:

ــ أردتـك أن تري وجهي المشـوه قبـل أن أجري العمليـة، فلربمـا لن تنجح، وأبقى مشوهـا للأبـد...لا أريدك أن تتعلـق برجـل متعب، رجل نـاقص، لن

تشعري بالسعـادة معـه...فلتتركي هذا الإعـجاب قبـل أن تندمين مستقبـلاً، وتشعرين بتأنيب الضميـر.

ــ أنت جميـل وهـذا التشـوه لا يعيبـك، مـا يهمني هو روحك الطيبـة، صدقنـي لن أتخلى عنـك أبداً مهمـا حاولت، أنـا لا أريد الجمال بل أبحث عن المحتوى، فهل المشـوه لا يملك الحق في الحب، والأعرج، والأعمى، والمعـاق أنت بهذا الفعـل تظلم نفسـك وتحرمـها من رغبـات هي من حقـها، رجـاءً يـا فريد لا تكـرر هذا الفعـل مرة أخرى...فلنـدع أمر هذا الحب لله...صدقنـي أنـا أريدك وأرغب فيـك ولن أنـدم يومـاً فأنـا أعـي مـا أقولـه صدقـاً.

جلس فريد على كرسي بالقرب منـها ومسح دموعـه، وأحس بيديها تحتـويه تحنـو عليه تنتشلـه من بقعـة ظلامٍ وألـمٍ، بكى في حضنها كالطفـل، وبطيبـة خففت عنـه كـل الوجـع.

ــ أنـا بقربـك لن أتركـك مهمـا حصل، رجاءً كن قويـا لأجلـي...ألا أستحق؟

ــ بل تستحقين، سأذهب للعمليـة وأنـا سعيـد بك، وأريد أن أراك قبـل أن

أجريها وبعد الخروج من الغرفة...لا أريد أن أصحو على وجه إلا وجهك.

قبلت جبينه وضمته بقوة، ظن أنها ستخاف وترتعب ولكنها تمسكت به، وشجعته وساندته بلطف، وأثبتت له حسن نواياها وخفاياها، فالحب لا يعرف الحواجز. جهز فريد نفسه للانتقال لغرفته في العيادة، وزاره الطبيب اللبناني "بيار سمعون " تحدث معه قليلاً ثم دخل إليه الطبيب الفرنسي بيرنارد بايسونيل. طمأنه وأمر الممرضات بتجهيزه، ولكنه أحب رؤية زينب قبل إجراء العملية. بعد دقائق حضرت زينب تحمل إليه وردة حمراء... شجعته وحدثته قليلاً وعانقته مطولاً ثم نقلوه للغرفة. بكت زينب كثيراً وخفف عنها الطبيب اللبناني بيار:

ــ لا تقلقي سيكون بخير، كوني قوية

ــ لا أستطيع، أحسست بوحدته ويتمه كم هو مسكين؟

ـ منذ دقائق كنت تشجعينه وتحثينه على الصبر والأمل، والآن أنت من تبكين.

ــ إنني أبكي عليـه، لا أحد يقف معه لـولا لطف الله به...كـم تعذب؟

ــ نحن معـه عائلتـه، أنت لا تعلميـن كـم نحبـه ونقـدره. هو طيب ويستحق كـل الخير

ــ كـم ستـدوم العمليـة؟

ــ ست ساعـات أو أكثـر.

ــ إلهي كـن معـه، كـن عونـه، فلتشفه يـارب، سهل لـه يـارب.

ــ هـيـا تفـاءلي بالخير، سيخـرج بخيـر.

بعد ساعـات مضنيـة من الانتظار خرج من غرفـة العمليـات ووضعوه في غرفـة خاصة...ألقت عليـه زينب نظرة ولـم تتمكـن من البقـاء أكثـر. وغـادرت للبيت تاركـة قلبـها معـه.

في صبـاح اليـوم التـالي استعاد فريد وعيـه وتحدث لطبيبـه الفرنسي ونقـل إليـه خبـر نجاح عمليتـه... شعـر بالسعـادة والحزن معـا. سعـادة نجـاح العمليـة وحزنـه عندمـا لـم يجـد عائلتـه بقربـه، ولكـن زينب غطت عن كـل أوجاعـه

وزارتـه، ولـم تتركـه دقيقـة واحدة، تقضي كـل النهار عنـده وتذهب في الليـل لتنـام في منزل خالـها. ولمح لها بحبـه وأهميتها في قلبـه...تـلك كانت أو ل بدايـات الحيـاة السعيـدة...وانفتاح بـاب الخيـر عليـه.

أصبحت زينب بالنسبة له مصباحـاً وهـاجـاً أنـار العتمـة بداخلـه، حينمـا فقـد هو الأمـل أعادته للحياة ببراعة، بابتسامـة تقيـة في صباحٍ بـاردٍ مثلـج، تمكنت من الحجز على كـل روحه، امتلكتها وسلبتـه كـل عقلـه وخلال جلوسه في المنزل للتعافـي، اهتمت بالمنزل ولم ينقصه شيء رفقتها، تغيـّر كثيـرا، صار يحب مـا كـان يكرهه، يحب الخروج ويرفـع الستـائر كـل صباح ويفتـح النـوافذ لتتهوى الغرف، ويستنشق هو اء باريس الذي جلب له السعـادة، كيـف لا فهي أرض العـاشقين يـأتونها من كـل فـج عميـق، لقـد انتهت مرحلة العُقـد بسلام.

مضى على فريد أسـابيع منـذ أن أجرى العمليـة وقـد عزم أن يصارح زينب بمـا يخالجه من وسـاوس حب قـاهرة جارفة تحتـاج من يروضها وبسرعة، وسـألها عن طقوس الزواج في بلدهم تونس، هو لا يختلف عن طقس لبنـان فالتقـاليد

تشبـه بعضها، المهم تنتهي بزواج، بارتباط اثنـان ارتبـاطاً أبديـا.

أجرى اتصالا مع جوزيف يستشيره.

ــ جوزيف.

ــ نعم يـا سيـدي.

ــ وعـدتك أن أبحث عن السعـادة، ولـم أحاول؛ كـنت سأخلف بالوعد، ولكنها دقت باب قلبـي فجـأة، لم أتمكن من ردعها ورد إغرائها، هي تعجبنـي جدا، لا تشبه النسـاء، أنثى بكـل مـا تعنيـه الكلمـة من قيمـة.

قفـز جوزيف من الفرح وفريد يسرد له وقـائع لقائهمـا بالتفصيـل الممل فقـاطعه قـائلا:

ــ سيـدي اطلب يدهـا للزواج، مـاذا تنتظر؟ السنـوات تمر بسرعة، والشبـاب لن يعود فلتعش الحب، فلتستمتـع.

ــ سأفعـل يـا جوزيف ولن أضيع الفرصة، فرصة هذا الحب العطـر، أنـا سعيد جدًا لأن النساء لسن متشابهـات، أؤكـد لك أنها لا تشبه النساء، هي لا يهمها المال والقصور، تريد الحب وهذا مـا يعجبنـي فيها، تريد رجلاً يحتـويها، رجلاً

يكون سندها، فرحها، عالمها، هي تتعب لتوفر لنفسها لتنفق على العلم والمعرفة، هي لا تبحث عمن ينفق عليها، جوزيف.

ــ نعم سيدي.

ــ هل سبق لك أن أحببت؟ هو شعور لم أحسه يوماً، لا يشبه مشاعري السابقة.

ــ سيدي الحب الجميل يأتي صدفة ومن أو ل نظرة، تلك كانت أو هام الماضي ومرت بسلام، ركز على الحاضر...إنسَ... تجاهل...عش لرغباتك، اهتم بها ولا تقارنها بالغير، فأصابع يدك لا تتشابه.

ــ صدقت لقد كانت أو هاماً ولن أذكرها.

بدأ فريد يبني مستقبله من جديد مع امرأة ثانية، أما جيهان فقد غيرت مسار حياتها، عندما دخلت إنجلترا رأت العالم بمنظور متنور متطور ومتحضر، فألقت بالماضي أرضا وارتدت حلة جديدة تليق بالمجتمع الغربي، صارت تشرب الخمر وتزور الحفلات الليلية، والملاهي الترفيهية للشباب، تبدلت صفاتها لصفات فتاة غربية مثيرة للجدل، بشعر أصفر وثياب قصيرة

فاضحة جدا، هي بلاد النهضة ويجب أن تواكب التحرر بكل أنواعه وضعت وشما على كتفها، وما عادت تحمل أي علاقة بلبنان، ولا حتى ريحها، غير عائلتها المحتاجة للمصاريف كل شهر، ومثلما وعدها زوجها، يوهمها أنه يرسل الكثير من المال لهم، صاحبت فتيات انفلتن من القيود، وسكنتهن حمى المرح وهستيريا المال والجاه.

لطالما أحبت حياة الترف، والإسراف واللهو والمشاكل، الحياة التي لم تخلق لها، يصحبها زوجها الذي يكبرها بسنوات كثيرة، للملاهي فيغريها منظر الشباب المتمايلين على أنغام الموسيقى الصاخبة، وأجسامهم فتحاول أن تبقى في نظره ثابتة متزنة، غير أنها تفقد سيطرتها في النهاية ولا تقاوم المشهد وتنسحب لدائرتهم الشبابية فتحتك بهذا وترمي بنفسها على ذاك، وتلامس بجسدها الشبه العاري كل من يقترب منها محاولة إلقاء نفسها كي تنتشلها أحد أيادي الشبان اليافعين، مما جعل علاقتها بزوجها تضطرب فيعاملها بقسوة شديدة، لم تكن تعلم ما ينتظرها مستقبلاً.... ففي اعتقادها أنه ديوث

تدوسه ببساطة وتفعل ما يحلو لها بلا قيود، إلا أنها عادت لتصطدم بالعقل العربي الذي لا تغيّره كل مغريات الحياة.

٣٠ آذار ١٩٧٣م.... بدأ فريد بالعودة للحياة الطبيعية وكأن شيئا لم يكن، تعافى من العملية الأولى بسرعة وتقبّل العلاج، لم ينقطع عن زيارة المعاينة الأسبوعية في عيادة الطبيب بيرنارد بايسونيل، وأفاده أنه في القريب العاجل سيجري له عملية أخرى للجزء الثاني من رقبته، فريد يعيش على أمل وجودها في حياته، وزينب تعيش لأجله فهو حبها الأول والأوحد، ولكنه مرتبك لا يعرف كيف يصارحها بحبه العظيم، أما هي فلن تتركه لامرأة أخرى، في المساء زارته تحمل له العشاء، دخلت وجلست على الأريكة وهي تحدثه بابتسامة.

ــ كان يومي مُتعباً مليئاً بالعمل، وأنت كيف كان يومك بدوني؟

ــ جميلاً.

ــ أحقا جميل اليوم بدوني؟؟...

نظر إليها خجلا وهو يحاول الإفلات من نظراتها الدافئة:

ــ فلتنظر إلى.

ــ مـاذا؟

ــ ألـم تفتقدني ولو قليـلاً؟

ــ جداً.

ابتسمت وقـالت له:

ــ ولماذا لم تخبرني؟ أنـا أيضا افتقـدتك، في العمل، وفي المعهد، وأفكـر بك كثيراً، هل سحرتنـي لأبقى بجوارك كـل هذه الأيـام؟

ضحك ورد عليها مستغربـاً:

ــ مـاذا تقوليـن يا فتـاة؟ أسحرك، غير معقـول؟ هذه أفعـال النساء وليست أفعـال الرجال، ثم من يحضر لي الطعام أنـا أم أنت؟ تستطيعين دس كـل أنواع السحر فيه كي تعتقلينـي في سجنـك، الذي تعودت عليه.

ــ لا لن أفعلها... فريد ألـم تحب في حيـاتك؟

اختفت ابتسامته فجـأة وعبس وجهه:

ــ أعتـذر منـك، يبدو أن سؤالي ضايقـك.

ــ لا إطلاقـا لم يضايقني سؤالك... أجل لـم أحب يومـاً، فأنا لم أجد من تستحق قلبي.

ــ جميل.

ــ ومـا الجميل في الأمر؟

ــ حظها جميـل من ستتزوجك؟

ــ لا اعلم إن كان حظها جميلا أو تعيسا.

ــ فريد، هل يمكن أن تتزوج بفتـاة غريبة، أقصد ليست من أرض لبنان؟

نظر إليها وفهم أنها تلمح لأمـر ما.

ــ لا أدري، يعتمد على قدرتها في جذبي لأقـع في قبضتها، ثم لا يهمني جنسيتها، فكـل الأوطان العربية بالنسبة لي لا تختلف عن لبنـان في شيء.

ــ هذا الأكـل أعدته زوجة خالـي، بصحتك.

ــ هل يعلم خالك أنك تزورينني؟

ــ لا يعلم، ولكن زوجته تعلـم.

ــ إذن لا تأتي هنا مرة أخرى، قد يراك وينزعج منك.

ــ لا تهتم، هو يثق بي، وحتى وإن رآني معك، سأقول له أنك تحتاج للمساعدة...تصبح على خير.

ــ زينب.

ــ نعم.

ــ هل تتزوجينني؟

ارتبكت زينب كثيراً، واحمرت وجنتاها وغادرت مسرعة، هو فهم أنها تريده، وهي سارعت نحو غرفتها وقلبها يكاد يخرج من مكانه، سهرت الليل تتقلب في فراشها تفكر فيه تعيد الحديث، أما هو فقد نام كملاك للصبح، بزغت الشمس وخرج الكل لعمله، استيقظ من نومه العميق وحضر القهو ة ونظر للباب فإذا به يرى ورقة بيضاء، فتحها وقرأها وابتسم، يقولون أن الحب يغير أرواح البشر، هو شيء خفي يدغدغنا، يدفئنا يجعلنا نبتسم دون أن نشعر، بالحب عشنا وعاشوا من كانوا قبلنا، وبالحب استطعنا المضي نحو الأمام، فالحب قوة خفية لا نعلم متى تلامسنا أو أين؟.

غـادر فريد مسرعا ليكمـل تفاصيل الحب الجـديد، وليضع على الحروف نقـاطها، ولتنتهي قصته بالزواج والاستقرار، دقـات قلبـه تنـاديه في كـل خطوة، زواج، زواج، زواج. لا تضيع الفرصة، يكـفي مـا مررت به من وجع، يكفـي معانـاة وشكوى وبكـاء

وأو جاع الإخفاق الذي مسحته زينب ببراءة وطهر في وقت كـان كـل شيء فيه أسـود، تعطرت السماء بفرح، فريد اشترى هدايـا وباقة ورود وعـاد للبيت وضعهم على الطاولة وخرج مرة أخرى، ليصادف خال زينب ينـزل الدرج.

ــ السلام عليـك يـا سيـد أحمد، أود التحدث إليـك في موضوع خاص.

ــ وعليـك السلام، تفضل.

ــ ليس هنـا، في المقهى القريب

جلسـا وطلب فنجاني قهوة، وبتوتر واضح يدخل فريد مباشرة في الموضوع.

ــ سيـد أحمد، أنـا من لبنـان، وجئت إلى فرنسا لإجراء عملية لوجهي، فكما ترى تعرضت لحادث، وقد التقيت بزينب. هي فتـاة صالحة ومؤدبة وأعجبتنـي أخلاقها، أريد خطبتها منـك أو لاً، ثم من عائلتها.

حدق أحمد بفريد مطولاً وارتشف قهوته ثم قـال:

ــ يا أخ فريد زينب أمانة عنـدي، ولكـن سأعلم عائلتها، ولتعلم أنها وحيدة والديها وقـد لا يوافقون أن تبتعد عنهم وتتزوج في لبنـان.

ــ سأستقر هنـا لسنوات إلى أن تكمل زينب دراستها، ومتى مـا شاءت سيسعدني أن تزور عائلتها ويزورونني هم أيضا، فأنـا يتيـم ولا عائلة لي كـل من أحبهم تحت التراب.

ــ حسنـا سأعلم عائلتها.

غمرت الفرحة زينب التي أعلنـت موافقتها للعائلة، ورضاها عنه، ولم يعترض أحد إلا والدها، فحبه لزينب لا يضاهيه حب، فتـاته الصغيرة كبرت وحان الوقت لتهاجر باحثة عن مأو ى، عن بيت، عن عائلة، لتزاحم قريناتها على الحياة...كانت الضغوطات عليها كثيرة من جهة الوالد الرافض لبعدهـا، ومن جهة خوفها أن تخسـر فريد. صارحته بمـا يدور من أقـاويل داخـل العائلة.

ــ أهذا مـا يعتقد الوالـد؟

ــ نعم.

ــ يمكنني يـا زينب العيش معـك في تونس، لأجـل عيونـك ولأجـل راحة عائلتـك، فأنـا لست خبيثـاً لأمنع عنـك زيارات الأهـل، تعلمين أنني يتيـم متيـم بك، ولسـت في سن اللعب كـل من هم في سني لديهم أطفـال، ولكـم تمنيت عائلة تسأل عنـي، تحن علي، أنتِ تمتلـكين كنـزاً يـا زينب.... مرت على المناسبـات ولـم أجـد من يهديني هدية أو يبتسـم لـي، أو يمنحنـي قبلة العيـد، شخصـاً واحدا كـان سيملأ فراغـهم جميعـا.

ــ أنا متعبـة جداً، أخاف أن تتغيّر وتنسحب من حيـاتي، بعد أن أنرتـها من المشرق إلى المغرب... خائفـة جداً من فقـدانك.

ــ بل أنـا من يخاف خسارتك، أعـدك سأبقى متمسكـا بك ولن أتركـك. لا تخافـي، فأنـا من تغير من أعماقـه لأجـل تونسية أعادت لي الحيـاة، كنت أسيـراً في صحراء قاحلـة لم أجد جنة تخرجني منها، حطمتنـي شمسها الساطعة الحارقة، أتعبتنـي إلى أن انتشلت جسدي المتعب من دمـار الأيـام، أنـا مدين لك، لا تعلمين مـا فعلتـه بي أيتها الغالية.

ابتسمت زينب واتكـأت على كتفـه، تمسكت به، كطفلة صغيرة تتشبث بنسمات

الحيـاة... تريد لعبـاً، حبـاً، اهتمامـاً...تعرف كيـف تكسبه لصفها بسهولة؟

ــ فريد.

ــ نعم عزيزتي.

ــ أريد العيش معـك حيث شئـت أنت، أريدك على طبيعتـك على راحتـك، لا أريد أن تعيش معي في ضغوط، فهكـذا ستكرهنـي وتكـره من حولـي.

نظر فريد بإعـجاب إلى عينيـها النـاريتين همـا ألهبتـا نفسـه وحركتـا قلبـه وهزتـا جسده (ابتسما معا).

ــ لقد كبرت في عينـي كثيراً، فأنت فتـاة تسعين لنفسـك، فتـاة همها أن تتعلـم، أن تسعد من حولها، وأن تساعـد.

ــ وإن لم أساعدك من ستساعدك؟ هيـا أخبرنـي؟

ابتسـم وقـال:

ــ لا أستطيـع السفـر الآن تعلميـن أنني مقيـد بالعلاج، عندمـا أشفـى سأسافـر إلى تونس ولن أتأخـر دقيقة عنـك.

ــ إن شاء الله...صدقنـي ستعجبـك صفـاقس جدا.

ــ أدري أنها جميلة مثلك، وسأحبها لأجلك.

ــ وأنا سأحبك دائما ولن أترك يدك تفلت مني ولن تفرقنا إلا الموت. سأكون لك كل العالم وأعدك سأسعدك بكل ما أوتيت من قوة.

نام فريد بعد أن هدّهُ التعب والحماس، أحس أنه يولد من جديد لحياة أفضل، لقد خلق الله البشر يحزنون ويسعدون، يتذكرون وينسون، ومن واجبه أن ينسى كي لا يؤلم طرفًا بريئا بذنوب الغير، لم يخبرها بماضيه تحفظا عليها من الأسى والحزن، وربما هذا الماضي سيطارده مستقبلا، لقد دفن جيهان في قبر منسي، وسد عليه جميع المنافذ، جيهان لم تصبح إلا حاضرا مريرا في قلب رجل آخر، هو لا يفهم الحب وهي لا يهمها إن وجد الحب أو لم يجده، فالحب بالنسبة لها هو المال الوافر، فكان خطأ الطبيعة أن تمطر بدل الماء أموالاً، لتشبع عطشها وجشعها، واشتد الخصام بينها وبينه وما عادت تطيق البقاء معه وهو لم يعد يريدها...ولكنها ستحظى بالعقاب الذي تستحقه.

الحيـاة تمر وتُذهب الشبـاب إلى غير رجعة تاركـا شوقـا وحنينـا إليه، لا شـيء يبقى على حاله، لا الطفـل باقٍ بطفـل، ولا الزمن باقٍ مثلمـا أحببنـا ورغبنـا، هي سنة الحيـاة وينبغي علينـا أن نكافح أن نرسم طريقنـا ونلونه، فتـارة نلحظه أبيضا، وتـارة أخرى زهري مفرح، وتـارة أخرى يتغيـم وتسوده لطخات سـوداء، فمـا علينـا إلا أن نصبر في طيـات الحيـاة المرّة.

استقـر فريد في فرنسـا بشكـل نهائـي، بمساعدة المحامي الفرنسي" هيكتـور ديبوسي"، وهـا هي الأيـام تمر وتمر، بحث عن بيت قريب من معهد زينب وانتقـل للعيش فيه، لم تنتهي قصته بعد بل أعـاد خلق قصة فريد من نوعها، بأساليب جديدة، وأغلـق قصة باليـة قديمة لم تولد ولم تكتب لها الحيـاة كما أراد، وأدرك أن السعـادة لا يُبحث عنها بل هي من تأتينـا بلا موعد.

ترجت زينب والدتها "لالـة خديجـة"، أن تقنـع والدها " سـي محـروس" بالقبـول، ولكنه أصـر على الرفض متحججا بالبعد، وأنه لا يعرف الفتى وعائلتـه.

مضت أشهر وهـا هو الربيع يكـاد يغـادر الأرض، وقـد تعرف فريد على زينب وعائلتها وتوطدت علاقـة متينة بينهم وبين عائلة خالها، تحدث إلى المحامي نجيب آل خولي في محاولة منه لفتح خط تجاري يربط لبنـان بفرنسـا لينمـي عملـه أكثـر... فالأيام رغم صعوبتها ومشقة العيش فيها، إلا أنها تصبح سهلة لنـا إذا وجدنـا عائلة متماسكة تحب بعضها البعض، بيتـاً دافئـاً وزوجة مصونة محبة لا تنتظر العطاء، تخلـو إليها كلمـا ضاقت بك الدنيـا وتعسرت، تتيسر إن هي ابتسمت وخففت معانـاة الزوج بالكلمة الطيبة وأنسته بلين ورفق تعب الساعات، وبوجود أبناء يسعدوننـا بضوضائهم، بأهازيجهم، بصراخهم، فتشقى وتتعب لأجـل ابتسامتهم، ولأجـل رؤيتهم يملـؤون البيت حركـة، تمر السنون ولا يتغيـرون عنـك فتكسب قلوبـهم، وقربـهم، وحبهم.... فقط بالمعاملة الحسنة.

٠١ حزيـران ١٩٩٩م

٦٠ سنـة مـرت من عمـري...يا زينـب.

ــ هل تذكرين يا عزيزتي، كم تعذبت للحصول عليك والوصول إليك، لكم أنا فخور بك زوجة، وأماً، وأختاً، يا سيدتي الجميلة، يا من امتلكت الروح قبل الجسد، زينت كل أيامي، تفاصيل حياتي، يا محراباً أصلي بداخله كلما ضاقت بي السبل.

رغم أن السنين مرت عليهما إلا أن الحب لا زال يدفئ قلبيهما وزاد عمقا واتساعا، هو الحب الذي يغيّر كل شيء فينا، هو الحب وحده من يطيل بأعمارنا فيجعلنا نعيش العمر كله في راحة.

ــ أرض لبنان أشرقت بك، وتفتحت كل ورودها لأجلك، أتدرين؟

ــ ماذا؟

ــ أنت أعظم ما امتلكت من خير في هذا الوجود...أنت قمر مكتمل الوهج.

ــ وأنت كنت ولا زلت سعادتي الدائمة، لطالما عاملتني كالملكات كنت حارسي المخلص، وحصني المنيع، ومعلمي وناصحي... زوجي الذي لم أحتج شيئا بجواره.

ــ أتبكين؟!!! تعلمين أنني لا أقوى على رؤية هذه الجواهر تتساقط.

ــ أخبرني ماذا سأفعل في غيابك، كيف سأعيش بدونك؟

ــ ستعيشين وكأنني موجود بقربك دائما.

ــ فريد حبيبي.

ــ يا نور العيون، يا قلبي المشرق بعشقك، والمستبشر بابتسامتك، عديني أن تعيشي من دوني وكأنني بينكم...هيا عديني.

نظرت إليه والدموع تنهمر كنبع سيال، تلامس شفتيه وعينيه وتحتضنه، لقد ذهب الجمال وحل محله تجاعيد تحدث من يراها بتعب السنين كم كانت مؤلمة.

ــ أعدك يا حبيبي

ولكم هو قاسٍ فقدان من نحب، ولكم هو مؤلم صدمة الموت، تحدث فجوة عميقة داخلنا لا يسدها أحد، هو المفاجئ المباغت الذي يأتي خلسة، هو الموت يتربص بنا، ينذرنا أحيانا بالقدوم يفزعنا يبيد فينا الرغبة

في العيـش، يبيدنـا أجـل...

من قـال إن الحب بـاقٍ فهو كـاذب، من قـال أننـا نقوى على المضي لوحدنـا كـاذب، نحن لا شـيء بدونهم، نحن خائنـون إن عشنـا بعدهـم، نحن الظالمون إن ابتسمنـا خلسة لغيرهم، من قـال أن الدنيـا ستصبح دنيـا بعد رحيلهـم، كـاذبـون هم، مخطئـون هم، سجنـا في حبـهم ومـا بعد السجن لا مفـر لا رحيـل، أين سنذهب بدونهم تتوقف الحيـاة.

كـانت جـذوة الشغف عظيمة بينهمـا لن تنطفـئ برحيـل طرف مـا، فالحب الطاهر لا ينسى عطره، لا يفسـد ولن تنتهي صلاحيتـه أبدا.

٢ تـــمـوز ١٩٧٤

مطـار قرطـاج الدولـي الساعـة العـاشـرة صباحـا....

كـم تبـدو تونس جميلـة من وراء نوافـذ الطائرة، تشبـه عيـون زينب، هوائـها منعـش فيـه القليـل من عطرها، هادئـة كطباعها، هل تشبـه كـل نسـاء تونـس حبيبتـي زينب؟ أم هي الأجمـل بينهن...الطائرة تنزل وقلبـي يكـاد يخرج من

بين أضلعـي، أتراه الخوف من قـدومي لبلد لا أعرف فيه أحد غير حبيبتـي، أم هو قلـق ينتـاب كـل العرسان؟ أحس بعجـلاتها تلامس الأرض، مثلمـا لامست هي فـؤادي الذي نزف لسنـوات وراء جدران العتمـة، خطـوة. خطوتـان.... أخطوهمـا نحو مخرج هذا المطار الذي بنـي سنـة ١٩٧٢م، استقـل فريد سيـارة أجرة إلى ولاية صفـاقس مبـاشرة، أخذ ينظـر للمـبانـي والمنـاظر فحدق إليه السائق ثـم قـال:

ــ هـل هي أو ل زيـارة لك إلى أرض تونـس؟

ــ نعـم... (وابتسم)

ــ سألف بك كـل الأماكـن وهذا على حسابي لا تقلـق، سأريك جمال بلادي، فأنـا أهوى تونس حد النخاع...وأحب الوطنيين جدًا، وأحتـرم كـل إخواني العرب...هكـذا تربيـت أن أحترم القريب والبعيد.

ــ لطف منـك، وحفظ الله وطنـكم.

ــ آمين، اسمـي بوزيـد

ــ أهلا بك، وأنـا اسمي فريد من لبنـان

ــ هـل جئت لأجـل السيـاحة أم العمـل؟

ــ سيـاحة

ــ ستعجبـك صفـاقس هي مدينـة جميلة وهادئة.

ــ إن شاء الله

وصل فريد إلى فنـدق الياسمينـة، حجز غرفـة وارتـاح قليـلا، تمـدد على السرير وراح يفكـر كيف سيلتقـي بعائلـة زينب؟ وكيف سيجعـل سـي محروس يوافـق؟ أخذ سماعة الهاتف واتصل على رقم منزل زينب، صوت امرأة خمسينيـة ترد:

ــ ألـووووو... مـن معي؟

ــ مرحبا.

ــ أهلا مـن معـي؟

ــ أهـذا منزل سـي محـروس؟

ــ نعـم، من المتكلـم؟

ــ أنـا فريد وقـد وصلت منـذ قليـل إلى صفـاقس وأريد زيارتكـم، هلا حددتـم موعـدا للقائنـا؟

ــ أجل بنـي، أهلا بك، سأعلم عمـك سي محروس فور عودتـه للمنـزل، صدقنـي زينب ستفرح جدا.

ــ أشكـرك سيـدتي.

ــ نـادني أمي خديجـة، فأنت ستصبح ابنـي جزء من عائلتـي

ــ كمـا تحبين، يسعدني هذا الأمر.

ــ أتريد التحدث إلى زينب؟

ــ نعم إن كـانت في المنـزل

ــ هي هنـا، انتظـر لا تقفـل الخط

صوت أقـدام تـأتي مسرعـة، أمسكت السماعة وبدأت تتحدث بلهفـة عظيمـة...

ــ فريد حبيبـي أهـذا أنت؟

ــ نعـم.

ــ أحقـا أنت في صفـاقـس؟

ــ صحيح...وصلت منـذ برهـة.

تجهش بالبكـاء، ينقطع الصوت، وعمّ بينهـما لدقـائق سكوت وسكون وحنيـن مسجون داخلهمـا

ــ زينب أتسمعينني؟ ألـو زينب...

ــ أسمعـك حبيبـي

كـان صوتـها مخنوقـا بـه غصـة من شوق حـارق جـارف. لـم تصدق قدومـه من شـــدة فرحتـها بـه:

ــ متـى ترغبيـن بقدومـي، سآتـي ولـن أتردد لحظـه، أبدا

ــ خفت ألا تـأتي

ــ تعلمين كـم أحبـك وأرغب بك زوجـة، وأمـاً لأبنـائـي وكـل شـيء

ضحكت لكلامـه، أمـا هو فقـد أحس بالراحـة، استـطاع الوفـاء بوعـده لهـا، والآن لا يفصلهـما إلا قرار الوالـد، صبيحة اليـوم الثـاني توجه فريد إلى أقرب

مقهى، ارتشف قهوته وتناول بضع بسكوتات وأخذ جريدة كانت ملقاة على الطاولة، صوت فتاة تسلم عليه:

ــ صباح الخير.

أزاح الجريدة من ناظره، إنها زينب، قام من مكانه وعانقها مطولا، كان يشم عطرها ويستمع لأنفاسها وبكائها، أما هي فسحبت من أعماقه دفئا واسترقت لدقائق نبضات تسارعت تدافعت لأجلها:

ــ كم اشتقت إليكِ، منذ عدتِ لتونس، تغيرت أحوالي إلى ركود وملل

ــ تعلم أنني أريدك أن تعمل وتنجح، انظر أنت هنا في تونس وأنا لا أصدق، هل أنا أحلم؟! أخبرني أنه حلم.

ــ لا تحلمين، بل هو واقع، هيا اجلسي.

ــ لا بل أريد معانقتك

ــ زينب الناس ينظرون إلينا كوني عاقلة.

جلست وطلب لها فنجان قهوة بالحليب وقطعة كعك.

ــ اشتقت إليه أيها البشر.

ابتسم فريد وقـال:

ــ كـم تبدين جميلـة بهذه الملابس.

ــ ارتديتها على عجـل، أنـا اليـوم غيـر مرتبة.

ــ بل أنت جميلـة، اسمعـي أريد الارتبـاط بك في أقرب وقت كي نعود إلى فرنسا معـاً، لا أريد أن نُضيع الوقت أكثـر.

ــ أمي تحدثت إلى أبـي البـارحة وقـد أخبرنـي هذا الصباح أن أعلمـك بموعد الغـد، هل ينـاسبـك؟

ــ منـاسب جدا.

ــ حدثنـي كيف مر الوقت عليـك بدونـي؟

ــ أخبرتـك أنني كرهت كـل أيامي وتحولت إلى جحيـم.

ضحكت عليـه ثم قـالت:

ــ سآخذك في جولـة خاطفـة هنـا، وأعرفـك بالمكان...هل أحببت تونس؟

ــ زينب أنـا أحبـك كثيـرا، لقـد تيقنت أنني اخترت الطريق الصحيح معـك.

اقتربت منـه وتمسكت بذراعه وهي تبكـي، وراح يقبـل جبينـها وعينـيها:

ــ كـم خفت أن أخسـرك، خفت ألا تذكرني وتنسـاني، وتخطفـك مني أخرى.

ــ يستحيـل أن أنظر إلى غيـرك بعد أن أحييت قلبـي، بعد أن أعدتني للحيـاة بصورة جديـدة.

لم يعد فريد يذكـر الماضي، بل تعلـق قلبـه بحاضر زينب، ومستقبـل زينب، ببنـاء بيت سعيـد، بإنجاب أبنـاء يحبونـه ويحبـهم، فريد يرغب بها كمـا لم يرغب بامتـلاك امرأة يومـا، هي أنثـى ولا تشبه النسـاء بعضـها، تجـولا في شوارع صفـاقس وأكـلا وتحدثـا والتقـطا بعض الصور إلى أن تعبـا من المشـي، ثم عـادت هي للمنزل مسـاءا، وهو عـاد للفندق ونـام قرير العينين، وفي تلك الليـلة رأى منـاما جميلا قصّـه على زينب صباحا، التي تزينت للقائـه، وارتدت أجمـل الملابس، ووضعت أروع الحلـي لأجلـه لتبـاهي به قريباتها، التي يكـرهن تعليـم الأنثـى.

ــ صباح الخيـر يـا زينب

ــ صباح الخير، كيف أصبحت؟

ــ بخير الحمد لله

ــ هيـا انهض وجهـز نفسـك لملاقـاة عائـلتـي

ــ انتظري، أريد أن أقص عليـك حلمـا رأيتـه

ــ خيـراً إن شاء الله..

ــ خير بالتأكيـد، رأيت أمي رحمها الله، تحمل طفـلا في يدهـا، وبجوارها آخر يلعب، والسعادة بادية عليها.

ــ كـم أتمنى أن أنجب منـك أطفـالا يشبهونك

ــ وهذا مـا أتمنـاه، أريد طفلـة وإن سمحت لي، سأسميها مـاجدة على اسـم والدتـي

ــ أنـا لن أختـار لأحد اسمـا، يكفينـي حُبـك لـي.

ــ أحبـك وأنت تستحقين الحب الكثيـر والكبير.

ــ هيـا قـم، ستتأخر علـي، كـم أحترق شوقـا لرؤيتـك هنـا بيننـا، أخي سيـأتي ليـأخذك من الفنـدق لا تنسـى.

ــ أعلـم، نلتقي لاحقـا.

السـاعة العـاشرة ينزل فريد من الفنـدق وفي يده بعض الهدايـا، فيـقابله العـامـل ويخبره بأن هنـاك شخصا ينتظر في صالـة الاستقبـال.

صبـاح الخيـر، أنـا فريـد.

ــ أهـلا، وأنـا رضا أخو زينب.

ــ سعدت بقدومك.

ــ بل نحن السعـداء، تفضـل.

انطلقـا معـا في سيارتـه، وعند وصولهمـا وجد العائلة مجتمعة، والدها، وأعمامها، وأخوالها ينتظرون، استغرب الأمر وتسـاءل أهو الفضـول أم الواجب الذي جمعـهم اليـوم؟ تعرف إليهم جميعـا، أحبـه الكـل إلا والـد زينب الـذي لم يرغب لها كـل هذا البعد، نظـر إليه وقـال:

ــ تفضل يا بنـي البيت بيتك.

دخل الجميع وجلسـوا بينمـا بـدا التوتر على نفسيـة فريد.

ــ اشرب القهوة أو لا.

ــ حاضر.

ارتشف بضعة رشفات وهو يرجف ثم وضع الفنجان وقال له:

ــ عمي سي محروس، أنت تعلم سبب قدومي إلى تونس التي لم أزرها يوما ولم أتوقع زيارتها أبدا.

ــ بالطبع أعلم.

ــ جئتك خاطبا ابنتك زينب.

ــ ابني فريد سمعت أنك يتيم ولا أحد لك غير الله، رحم الله والديك، كما تعلم زينب ابنتي الوحيدة ولا أريدها أن تتزوج بعيدا عني وعن أمها، فلذلك سأوافق شرط أن تعيشا في تونس وقريبا منا.

نظر الجميع لسي محروس مستغربين ما قاله، فحاول أخوه الأكبر التدخل:

ــ محروس نحن نبحث عن أزواج صالحين لبناتنا ولا نجد، وأنت تضع شروطا للرجال.

ــ أبي رجاء وافق، فالرجل أتى من بعيد قاصداً بيتك لا ترده...وقد تعجبه تونس ويعيش هنا.

ــ أين ستعيشان بعد الزواج؟

ــ كما تحب أنت، إن شئت سأعيش هنا لأجل أن ترى زينب بخير. وليطمئن قلبك عليها.

صمت قليلا ثم أعلن عن موافقته بعسر،...كانت فرحة الأطفال الحاضرين أقوى من فرحة الكبار، فريد الذي أحس بالحزن لعدم حضور والديه ورؤيتهما هذا اليوم السعيد تنفس الصعداء...تعالت الزغاريد التونسية وعلقت الزينة، وارتدت زينب فستانا أبيضاً أضاء سريرتها وزادتها الحناء الحمراء بهاء وجمالا...بينما راحت النسوة توشوشن خلف ظهرها وتندبن حظوظ بناتهن، كاظمات غيظهن والغيرة طفحت على وجوههن البائسة الذابلة كأوراق الخريف الصفراء، متحسرات نادمات على منعهن من التعليم، أما فريد فقد زينه أخو زينب بلباس تقليدي وساندوه كأنهم أشقائه. حلّ الليل مصحوبا بكلام كثير، وفي غرفة الفندق اجتمعا زوجين لا يفرقهما إلا الموت، اتحدا للأبد، أكلا معا وتسامرا وسهرا للصبح، ثم ناما في حضن بعضهما...أحيانا ينبغي أن نتعب من أجل من نحبهم ويحبوننا، وأن نتمسك بأيديهم الحنونة، وأن نحتفظ بهم ونحفظ

خواطرهم من الكسر، كي لا نخسرهم فتضيع الفرصة الجميلة منا وننـدم.

استفاق فريد على عينيها الناريتين وهي في كامل أناقتها، مبتسمة كعادتها:

ــ صباح الخير يا زوجي العزيز

ــ الله كم هي كلمة جميلة، فلتعيديها.

ــ زوجي، زوجي، زوجي لا أصدق أنا أحلم، هيا اقرصني.

تلاعبت بشعره ودغدغته، فراح يضحك بأعلى صوته، هو الحب الصادق من جمعهما والوفاء لبعضهما، في الوقت الذي تزوج فيه هو على الأصول الشرعية والعربية، كانت جيهان تطلق زوجها بالقوانين الغربية.

ــ أين كنت، تكلمي أيتها الساقطة الحقيرة؟، مع من كنت؟

ــ عند صديقتي شربت بضعة كؤوس فأخذتني لمنزلها.

ــ ولماذا لم تعودي مع السائق؟ أتحسبينني غبيا؟؟ كنتِ في منزل شابٍ غريب، أيتها القذرة الملعونة ما أتعسني بك.

ضربها ضربا مبرحا وأمر الخادمة أن تجمع حاجياتها وتلقيهم خارج المنزل:

ــ إلى أين أذهب؟

ــ إلى الجحيم يا ساقطة، لا يعجبك البقاء مع عجوز مثلي فأنا لا أشبع رغباتك الشبابية، الخبيثة الشيطانية، ارحلي هيا.

ــ صدقني لم أخنك. أنت تظلمني

ــ وماذا تسمين بقاء امرأة متزوجة في منزل رجل غريب؟ تحررا؟؟

ــ نمت عند صديقتي ويمكنك أن تتصل بها وتسألها.

ــ غادري المنزل هيا، سأرسل إليك بورقة الطلاق، قلت غادري.

خرجت من منزله مذلولة إلى غير رجعة، وعادت لصديقها، الحياة بينما نعتقدها انتهت، وانكسر كل شيء فيها، واسودت في أعيننا تعود لتجبر خواطرنا بقدرة من الله العزيز، فيعوضنا خيرا مما فقدنا ويبعد عنا الأسوأ لحكمة منه يعرفها هو، ونجهلها نحن، ونفهمها متأخرين.

ــ متى تتزوجني؟

ضحك حتى كادت تتمزق خواصره من الضحك...

ــ هل جننتني؟ أتزوج بامرأة مثلك لا تهمها في هذه الحياة سوى العلاقات والمال !!!، ثم منذ متى كان همك الارتباط.... ولوكان يهمك لما تخليت

عن زوجك وختنه، أنا لا أريد زوجة خائنة، تخوننني مع أو ل رجل يبتسم لها، أُمًا لأبنائي سافلة، فتاة عربية غبية عاهرة !!؟؟

ــ أهكذا تراني؟!... فتاة باعت نفسها وخانت زوجها

ــ نعم لا تقولي إن هذا الأمر يحزنك هي الحقيقة، هو واقع يا عزيزتي، هيا اخرجي، فأنا أريد أن أنام، لكن لا أنكر أنني تسليت جدا معك.

ــ ولكنني أحببتك، كنت أظنك ترغب بي؟

ــ حينما أرغب بامرأة يوماً ما، فلتدرك أنها لن تكون مثلك...رجاءِ فلترحلي أريد أن أنام قليلاً، متعب جدا. أغلقي الباب وراءك.

جمعت حاجياتها وغادرت في ذل، استأجرت بالمال المتبقي لديها غرفة بسيطة وحاولت البحث عن عمل، ولكنها لم تجد، فعرضت عليها صديقتها ساندرا أن تعمل في ملهى ليلي...تقديم الشراب للزبائن، كان هذا الحل الوحيد لتتمكن من العيش وتصرف على نفسها.

المال، هو زينة الحياة الدنيا، لولاه لما تمكنا من العيش والتقدم، فإن امتلكت المال أحبوك، صاحبوك، وخدموك، وإن لم تمتلكه تركوك منبوذاً

لا سائل لك غير الله...فالمال مصدر السعادة، وإن غاب فهو بؤس وشؤم...ولكن الأبناء أعظم منه نعمة وقدرا، ولولا الأبناء لما كان للمال قيمة، قد تمضي الحياة على بعضهم يجتهدون في جمع المال ويقدسونه، ولكن في النهاية لن يأخذه أحد، لا زوجة ولا أبناء ينعمون به...فلا يوجد أغلى من رابطة الأسرة. حب الزوجة، وطاعة الأولاد وصلاحهم، عندما تعود من زحمة الدنيا وصخبها، إليهم فيقابلونك بزخم عظيم من الحب والعطف والاهتمام والرحمة...هو المال من يرفع قدر الأغبياء ويذل بزواله الأذكياء، هو المال يأتي ليعمي بصيرة البعض فيمجدونه خوفا من ذهابه.

وكم هو محزن أن يرحل عن البيت والد أو والدة، كما رحل والد جيهان، تاركا فراغا في قلوب أبنائه، وزوجته، الحزن هذا الألم الذي ما يفتأ يزورنا يتجلجل بداخلنا يضعفنا يعتصرنا، يقسو علينا، حينما لا ندرك قيمتهم إلا بعدما يرحلون، فنذكر تفاصيلهم بالحب وهم تحت التراب، لكم كانوا بحاجتها وهم أحياء، لكم كانوا بحاجة للشكر، للقُبل، للاهتمام، للصدقة وللزيارة، لكم كانوا بحاجة للكلمة الطيبة للحضن الدافئ، للبيت

الهادئ بلا مشاكل بلا فراق. فالبعد مُضني، لم تتمكن جيهان من وداع والدها، ولكنها بكت كثيرا مرارة الفقد، ولم تجد صدراِ حنوناِ يواسيها ويخفف عنها الألم غير صديقتها ساندرا، كانت عائلة جيهان تعيش على مبلغ شهري مرسلٍ بنظام، كبر إخوتها وأخواتها البنات وتعبت والدتهم بسبب المرض، لتجلس في البيت تراقب أبنائها يكبرون رويدا، كان ما يشغل تفكيرها هو جيهان، يأتي أحد أبنائها مسرعا:

ــ أمي، أمي لقد رأيت زوج جيهان من بعيد. هل عادت أختي؟

ــ لا لم تخبرني، ربما أتى لوحده.

ــ هل أذهب لأسأله عنها؟

ــ لا يا بني، فلننتظر ربما يزورنا.

لم تخبر جيهان عائلتها بطلاقها، ولكن قلب الوالدة أحس بها، هي ترغب بالبقاء في إنجلترا، زارت والدتها طليق ابنتها صبيحة اليوم الثاني:

ــ سيد عاطف هناك من تريد رؤيتك

ــ من؟

دخلت والـدة جيهان تمشي متثاقلـة، قـام عاطف وحيـاها ببرودة وأمر لها بفنجان قهوة

ــ كيف حالك؟

ــ بخير.

ــ لم تزرنـا، فقلت ربمـا شغلتـه مشاغـل كثيرة، فأتيت إليـك شاكـرة صنيعـك معنـا، ولأطمئن على ابنتـي.

ــ ابنتـك...ألا تكلمـك عبر الهاتف؟

ــ نـادرا مـا تتصل.

ــ يـؤسفنـي أن أخبـرك، أننـا انفصلنـا منـذ خمسة سنـوات، أستغرب كيـف لم تعلمـكم!!

ــ قلت انفصلتـما؟! ومنـذ خمسـة سنـوات؟

ــ أجـل هي لـم تكن زوجـة مصونة ومثاليـة، أخطأت بزواجي بها، كان يجب أن أسـأل عنـها قبـل أن تُحني رأسـي.

ــ تحنـي رأسـك !!! ماذا فعلـت؟

ــ اسأليها، والآن لدي عمل، وأعتذر منك فوقتي ضيق في لبنان.

ــ حسنا سأسألها، ولكن ما دمتما انفصلتما، فلم نعد بحاجة للمال الذي ترسله كل شهر إلينا

ـ أي مال؟ فأنا لم أرسل شيئاً.

حملقت فيه مطولاً ثم انسحبت في صمت... تاركة وراءها الكثير من التساؤلات، من وراء تلك الأموال التي أعانتهم لسنوات.؟...أحيانا نعتقد أن كل من يعيش حولنا، هم أشخاص فيهم الإنسانية وحسن الظن بالآخرين، أو فيهم الخير الكثير للكل...ولكننا مخطئون جداِ فحسن الظن لا يمتلكه الكثيرون، لأن معظمهم سيئ الطباع وقلوبهم سوداء لا تتسع إلا لأنفسهم البغيضة... لم تُحدث والدة جيهان أي أحد حول طلاق ابنتها وعن تلك الأموال التي تصلهم كل شهر...بل فضلت الصمت، فالحديث يجعل الإنسان يدخل في القيل والقال الذي لا يأتي إلا بمشاكل صوت الهاتف يرن:

ــ ألوو، أمي.

ــ أهلا بنيتـي كيـف حالك؟

ــ بخيـر مشتـاقـة لكـم.

ــ ونحـن أيضا نشتـاق إليـك، لا يكفـون إخوتـك عن السؤال عليـك، فالبـارحة رأى عدنـان زوجك، ألـم تأتِ معـه؟

ــ لا أبداً.... هو في زيارة قصيرة ولـم أرغب في الذهاب معـه.

دمعت عينـاها...وتساءلـت الوالـدة مـا الـذي يدفعـها للكـذب، ثم لمـاذا لم تخبرهـم بطلاقـها، ومـاذا حدث بينهما لينفصـلا؟

ــ بنيتـي أحقـا أنت بخيـر؟

ــ بخير يـا أمي...المهم كيـف حالكـم؟ كـم أشتـاق إلى عدنـان، وأميـر، وشيرين، ودانـا

مسحت دموعهـا وقـالت:

ــ ينتظرون عودتـك بشوق عظيـم...عدنـان تحصـل على علامات ممتازة، وأمير دخل لمعهد الموسيقى، اشتـرى البـارحة كمـانا، يريد أن يصبح عازفـاً، كـم يحب العزف فهو بالكـاد يفارقـه، أما شيرين تدرس بجهد لكي تصبح معلمـة،

ودانـا تقول إنها ستسافر مثـلك، حلمـها رؤية العالـم.

ــ أحبائـي كم أحبـهم.

ــ كـل هذا بفضل الله، الحمد له.

تمر الأيـام مثقلـة محملـة بكآبة، هي الحيـاة من تجمعنـا وتفرقنـا، ترمينـا وتعانقنـا، توهمنـا بحلاوتهـا، وما نكـاد نصدق حتى تسحبنـا لمتـاهـاتٍ بعيـدة قـد نخرج منـها منهكيـن متعبيـن ضاليـن الطريـق، وقـد لا نخـرج منـها فتنهـي مسيرتنـا في منتصف السير، هي الحيـاة وحدها من علمتنـا دروساً وعبـراً، تلاقينـا بالرفقـة الصالحـة، تلاقينـا بالإخوة الطيبيـن، بأزواج صالحيـن، بزوجـات طالحـات، أو أصيـلات، هي وحدهـا من تجعلنـا نؤمن ونوقـن أن الدرس صعب، وعليـنـا أن نشمـر على سواعدنـا مهمـا كـان الوضـع، لنـدخـل أحيـاء في يوميـاتها ونخرج في الأخيـر أحيـاء حتى ولـو بنصف عقـل.. عـادت مرة أخرى لتزوره، طرقت البـاب ففتح جوزيف:

ــ صباح الخير، أتيت منذ سنوات باحثة عنه هل عاد؟ هل أخبرته بزيارتي؟

ــ سيدتي لم يزر لبنان منذ غادر. ولكنني أخبرته بزيارتك...من تكونين؟

ــ أيمكنك أن توصل له رسالة مني، رجاء قد تكون هذه آخر مرة ألقاك فيها في عامي هذا.

ــ بالطبع يمكنني.

ــ أرجوك أن توصلها له.

ــ سأفعل، أعدك.

فتحت حقيبة اليد وأخرجت منها رسالة مغلفة، وأعطتها له.

ــ أشكرك.

غادرت تمشي ببطء، وبقي جوزيف يرقب انصرافها. صوت الهاتف يرن.

ــ مرحبا.

ــ سيدي هذا أنا جوزيف.

ــ صباح الخير، كيف حالك؟

ــ عـادت تسأل عنـك وتركت لك رسالـة.

فزع من مكانـه وقـال وهو متوتر:

ــ من؟

ــ تلك السيـدة التي حدثتـك عن زيارتها وسؤالها عنـك.

ــ هلا فتحت الرسالـة وقرأت لي فحواها

ــ حاضر سيـدي انتظـر دقيقـة

فتح الظرف وقرأها....

أعتـذر إن زرتك وأزعجتـك، ولكنـك يجب أن تعرف موضوعا في غـاية الأهميـة لا يمكنني كتمانـه، قبـل وفـاة والـدك بسبعـة سنـوات كنـت قـد التقيتـه وأحببتـه ولم أعلـم ساعتها أنه متزوج، هو لم يخبرنـي وأنـا لم يكن يهمني أن أعرف، هو الحب من يعمـي بصيرتنـا، من يـأخذنا للهلاك أو للسعـادة، تزوجتـه وقد أحبنـي وأحببتـه وهذا لا يعنـي أنـه قـد كـره والدتك، لا أبداً، لم يذكرهـا لي يومـا بسوءٍ، لقـد أنجبت له ولـداً، هو طيب مثـلك هذا ما أخبرنـي به عصام...أردتـك أن تعلـم بوجوده، ولا نريد منـك شيئـاً. لدينـا

منـزل ونحن نعيـش بفضل الله...كـل مـا يحتـاجه أخوك هو سندك وحبـك رجاءً لا تتركـه، رجاءً لا ذنب لـه، وهذه بعض الصور التي تثبت أنه ابن أبيـك ونسخة من عقد الزواج، شكـرا لك، في انتظار ردك.

ــ سيـدي هل سمعت مـا قالتـه؟

ــ هل تركت رقم هاتفـها؟

ــ نعم والعنـوان أيضًا.

ــ رجاء أرسـل للمحامي نجيب وأخبـره أن يتقصى خبـرها.

ــ حاضـر.

ــ وأرسل لـه نسخة من عقـد الزواج، هل سمعت يا جوزيـف؟، لا أستغرب وجود طفـل من نزوات والـدي، وربمـا هنـاك أطفـال كثـر...لا لا لا، هي تقـول الحقيقـة، طالما أثبتت الصور وعقـد الزواج مصداقيتها.

ــ لطالما كانت والدتك تحس أن وراء هذه النـزوات أطفـالاً لا ذنب لهـم.

ــ رحمها الله.

من أقبح ما يخلفه المرء ورائه هو الظلم، كيف يستطيع البعض أن يتلاعب بعواطف الغير، كيف يستطيع البعض أن يُحرِم على غيره ويُحلل على نفسه... إن النزوات كثيرة لا تنتهي، والأبرياء هم من يدفعون ثمن تلك العلاقات العابرة المحرمة، ثمن أخطاء الكبار بعقولهم الصغيرة المجرمة، ثمن أكاذيبهم ونياتهم السيئة.

ــ أنا حامل؟

ــ قلت حامل !!!، ومن هو الوالد؟؟

ــ حامل منك أنت، هل نسيت أنني قضيت عدة ليالٍ عندك !؟

ــ لنفترض أنه مني، ماذا تريدين أن أفعل لك؟ أعترف به !!؟، أتزوجك مثلا؟

ــ أجل. هل بي ما يعيب كي ترفضني؟

ــ سأعطيك مبلغاً لتجهضيه، أعتذر منك يا عزيزتي فأنا لست مستعداً لهذا الأمر، لا أريد أطفالاً.

ــ تزوجني وأنا من سأهتم به، سأعتني به وأربيه...لن ينقصه شيء معي.

ــ تربيـن من؟!... عليـك أو لاً أن تصبحي امرأة صالحـة، ثم زوجـة صالحـة، ثم أمـاً صالحة...وأضيفـي على هذا أنـا لن أدعـك تنجبينـه وتربينـه مسلمـاً...بل سيشب على ديانـة والـده.

ــ كم تكرهون المسلميـن رغم أننـي لـم أؤذيـك، مـا هذه العنصرية والضغينـة؟

نظرت إليـه بضعف، بينـما راح يسحب ذاك الدخـان المنبعث من سيجارتـه ويفكـر، صمت قليـلا ثم قـال:

ــ عزيزتي جيهـان، استمعـي إلـي، الأطفـال نعمـة، ولكنـهم في وضعـك هذا سيصبحـون نقمـة، أين ستربيـه؟ ومن سيسـاعدك؟ عليـك أن تتخلصي منـه وعـاجلا، لا تتهاونـي من فضـلك.

ــ أهذا كـل ما لـديك؟

ــ نعم

ــ فكـر، ربمـا ستحب أن تصبـح أبـاِ.

ــ قلت لا يعنـي لا، رجاءً لا تُحمليـني هذه الخطيئـة، لازلت شابـة وستلتقيـن

رجلاً يحبك وتحبينه، وتنجبين منه الكثير من الأطفال، هل فهمتي؟ فلتعودي إلى وطنك إلى أهلك ولتبدأي من جديد.

ــ ألم تحبني ولو قليلاً؟

ــ مطلقاً، لا أفكر في الحب، أنتِ من بداية الأمر كنتِ تتسلين معي.... من أين نزل عليك الحب فجأة؟ والرغبة في الأمومة؟

ــ لا بل كنت تعجبني، وقد ظننت أنك تريدني

ــ اجهضيه، وهذا مبلغ من المال خذيه، هو كل ما بحوزتي وإن احتجت المزيد أخبريني

ــ أنا في أمس الحاجة إليك، أليكسندر رجاء لا تتركنا، أريد الاحتفاظ بالطفل...أرجوك.

داس على سيجارته وأطفأها ثم غادر ولم يعرها اهتماماً، لكم أحست بالذل والإهانة وهي في ذاك الموقع على قارعة الطريق...تلاعبت بعواطف فريد فانتهى بها المطاف ألعوبة في يد الجميع، هي القسوة من جعلتها تصل

إلى ذاك المستوى، هو الجشع والطمع اللذان سحباها إلى الطريق المسدود، تذكرته أخيراً تذكرت حبه لها ونصائحه، كم ترجاها أن تتزوجه أن تبني معه البيت السعيد، المليء بحركات الطفولة ضحكاتهم، صراخهم، اليوم أحست كم هي بحاجة للعودة إليه لرؤيته، للبكاء على صدره، لإخباره كم تبد والحياة موحشة بعيدا عن من نحبهم ويحبوننا كم تبد والسنة دهو راً بلا شعور بالحياة، كم هو أسود العالم بلا ألوان بدونهم، اليوم فقط تذكرته ذاك المشوه الذي ترجاها أن تكون له كل الكون، ولكن البشر ظالمون، يؤتون متأخرين دائما، تصحوا ضمائرهم متأخرة بعد فوات الأوان.

ــ ألو، مرحبا.

ــ مرحبا.

ــ لقد فكرت كثيرا يا جيهان. لا أدري حصلت معي أمور كثيرة خلال هذه الفترة القصيرة، جعلتني الأحداث أغيّر رأيي في بعض الأمور، هل نلتقي الليلة لنتحدث؟.

ــ نتحدث عن ماذا؟

ــ عن كل شيء، عن بيتنا، زواجنا، أطفالنا، عن حبنا...كنت مخطئا في حقكما أنا آسف جدا لم أكن أعِ ما أقوله ذاك اليوم.

ــ أليكسندر (تجهش بالبكاء، ينقطع الاتصال)

ــ عزيزتي لا تبكي تعلمين أنني سأبكي معك.

ــ آآآآه يا ساندرا كم أشعر بالألم، إنني أتوجع.

كان من حظها الجميل أن لديها رفيقة طيبة تقاسمها كل ما تمتلكه، عادت البسمة إليها، عادت لتمحو خطيئات ارتكبت في حق الغير، عادت لتعيد لها توازن الحياة علها تتدارك ما بقي لها من العمر.... عاود الاتصال:

ــ ألو، لِم قطعت الاتصال فأنا لم أكمل كلامي؟

ــ أسمعك

ــ هل تتزوجيني؟

صمتت ولم تجبه، ولم تتحمس للطلب فالرغبة الجامحة يقتلها الرفض فتُذهب حلاوتها، ولكن حماس ساندرا جعلها تدخل للقفص الذهبي

مرة أخرى:

ــ هي موافقة وتحبك جدا، عد إليها بسرعة...عد لتمسح دموعها ولتسعدها، لا تتأخر.

قد تمر السنوات كلمح البصر، ولكننا لا نعرف كيف نعيشها، فنترك السعادة تفلت من بين أيدينا، وقد تأتينا الفرصة الجميلة مرة واحدة، وقد نضيعها، أحب أليكسندر جيهان ورغم إجهاضها للطفل إلا أنها بقيت زوجة صالحة له على أمل أن ترزق بأطفال آخرين، يملؤون فراغ الحياة عليها، أطفالاً يبعدونها عن ذكريات المعاصي.

٤ نيسان ١٩٧٥.....المستشفى (فرنسا)

صوت بكاء طفل صغير، يأخذه بين يديه ويُقبله محاولاً مداعبته برفق

ــ أهي صدفة يا زينب أو قدر لقد ولد في يوم مولد أبي رحمه الله...كم هو جميل يا زينب إنه يشبهك.

ــ بل أراه يشبهـك أنت.

يعطيـه لزينب لتحملـه وترضعـه، يجلـس بقربـها

ــ أي اسم اخترتـه لـه؟

ينظر إليها مبتسمـا ويقـول:

ــ جوزيف، سأسميـه على اسـم العزيز جوزيف.

ــ سيفرح جدا لسمـاع هذا الخبـر.

ــ بالتأكيـد.

صوت الهاتف يرن ... بيـروت

ــ جوزيف، كيـف حـالك؟

ــ بخيـر يا سيـدي، أظنـك اتصلت لتخبرنـي بولادة طفـلك الأول.

ــ نعم وقـد أسميتـه جوزيف.

ــ لا أصدق يا سيـدي.

ــ لن أنسـى مـا فعلتـه لأجلـي، وهذا أقـل شـيء أقـدمـه لك، أيها الطيـب.

ــ لقـد أفرحتنـي بهذا الخبـر، أحبـك بنـي، ولكن متى تنـوي زيارة لبنـان؟

فقـد اشتـاقت لك كثيـرا.

ــ وأنـا اشتقـت إليـها جدا، انقـل للمحامي نجيب والطبيب أمجد القـاسمي سلامي.

ــ سأفعـل، اهتـم بالصغيـر جيـدا.

ــ جوزيف...شكـرا لك لأنـك أخرجتني من ذلك المنـزل. لـولاك لبقيـت مكبـلا بلا فائـدة، شخصا ميؤوسـا منـه.

ــ أريد أطفـالاً كثـر، فطفـل لا يكفينـي...وإن أردت أن تعيـد لـي فضلـي فتعالوا لزيارتـي قبـل أن أموت، إن الوضع هنـا لا يطمئـن بالخيـر أبدا.

ــ إن شاء الله، سأزورك كـن واثقـاً أنني لن أتخلى عنـك.

ــ الآن سأموت وأنـا مطمئـن عليك.

ــ جوزيف مشتـاق جداً لي، وأحس أنني أظلمـه في كـل مرة يطلـب فيها منـي العودة إلى لبنـان ولا أذهب، فمـا رأيك هل ننـزل ضيوفـا عنـده، أم نستضيفـه عندنـا؟

ــ مثلمـا تحب يـا عزيزي.

ــ هو لا يصدق أنني استقريت هنا وتزوجت، آآه يا عزيزتي لو رأيت وضعي أثناء تواجدي في لبنان...لن تصدقي أنني نفس الشخص اليوم.

ــ الحمد لله

تأخذه في أحضانها بقوة ثم تقول:

ــ لولا ذاك الحادث لما كتب لي الله أن أراك.

ينظر إليها وهو يبتسم ويلامس وجهها بحنان ورفق فتقبل عينه وتقول:

ــ أنت نور حياتي. زينتها...وفرحها

ــ من ينظر إلى عينيك لن يخرج منهما أبدًا.

ــ لا تبالغ؛ فأنا فتاة عادية.

ــ أبدًا أنت أجملهن، وأطيبهن، وأرقهن، وأطهرهن.

امتلأت نظراته الأبوية المليئة بالحنان والحب لابنه، وزاد تعلقه به وخوفه عليه، وكم هو جميل أن يصبح لليتيم عائلة، ومنزل يعج بالحركة، والضحك، كم هو جميل أن يشعر الوحيد بطعم الحياة مجددا، العائلة هي نعمة عظيمة يجب أن تزهر شجرة زكية، يجب سقيها بمياه مباركة،

بكلمـاتٍ طيبـة، لنجنـي ثمـارا حلـوة. وأهـم شـيء أن تُغرس في أرض صالحـة نـافعـة.

في صبيحة يـوم ١٤/ نيسـان ١٩٧٥.... تنـاقلـت الصحف العربيـة والعالميـة خبـر حادثـة عين الرمانـة ١٣نيسـان ١٩٧٥ والتي تعرف أيضا باسـم حادثـة بوسطـة، هي مجموعة من الأسماء التي أعطت للمواجهة المسلحة التي جمعت مسلحيـن لبنـانيين مسيحيين ومجموعـات مسلحـة فلسطينية في شـارع عين الرمـانة في إحدى الضواحـي الشرقيـة لبيروت والتي اعتبرت فيمـا بعد الشرارة المباشرة لاندلاع الحرب الأهليـة اللبنـانيـة، هـذا مـا كـانت تتناقلـه الألسنـة آنذاك، ولكن الحقيقة سرعـان مـا تظهر.

ــ صباح الخير أستـاذ نجيب، كيف الحال؟

ــ صباح الخير فريد، الحال لا يطمئن بالخيـر أبدًا.

ــ مـا هذه الأخبـار التي قرأتهـا وسمعتـها؟

ــ تقصد حادثـة عين الرمانـة؟

ــ نعم.

ــ هنـاك أخبـار عن محاولـة اغتيـال فـاشلة للزعيم بيـار الجميـل رئيس حزب الكتـائب ذي الأغلبيـة المسيحيـة، قـام بها مسلحون مجهولون أثنـاء قيـام الشيـخ بيـار بواجب اجتماعي في إحدى كنـائس عين الرمـانة، قتـل خلالها مرافقيـه، وقد سمعت أنها السبب في مجزرة عين الرمانـة، التي هو جمت فيها إحدى الحافـلات المدنيـة والتي كانت تقـل لبنانيين وفلسطينيين...هذا مـا سمعنـاه لحد السـاعة.

ــ نسأل الله الخير للبنان.

ــ إن شاء الله، وأنت كيف حالـك؟

ــ بخير الحمد لله.

ــ إذا مـا حصلت مشاكـل هنـا فسوف أغـادر لبنـان مع عائلتي.

ــ نتمنى ألا يحدث مـا تتناقلـه الألسنـة التي تضمر الشر لنـا.

ــ لا أدري، ولكن الوضع مضطرب فعـلا.

ــ المهم اعتنِ بنفسك واعلمني بكل جديد.

ــ إن شاء الله.

ــ اقفل الخط ثم عاود الاتصال بجوزيف.

ــ جوزيف إن أحسست بالخطر في بيروت فلتترك كل شيء ولتغادر إلى مكان آمن ولتطمئني عليك.

ــ أنا لا استطيع مغادرة لبنان، إن روحي معلقة هنا، فأنا كالسمكة لا أستطيع الخروج من موطني.

ــ افعل ما أمرتك به رجاء، وحينما تهدأ الأوضاع سنعود كلنا.

ــ حسنا.

كانت تلك بداية الحرب، والتي أصبح لبنان من حينها ضحيتها، وشّردت الكثيرين، ودمّرت المنازل، ولم تعد لبنان تبرق مثل قبل، لبنان زهرة الشرق الأوسط تعلوها سحب سوداء، وتحلّق فوقها غربان سوداء، تصدر أصواتا، فسرها البعض بقدوم أمطار غزيرة، أما البعض فتطير منها قال عنها نذير شؤم.... ألا فلترحلي؛ ألا فلتغربي؛ فلبنان صامدة

عزيـزة...الجو لا يطمئـن بالخير أبـدا...

كـانت حربـاً أحرقت كـل شـيء، وغـادر الآلاف نحو استراليـا، وأمريكـا، وأو روبـا، وكنـدا وقد كانت قبرص أو ل محطات لجوء اللبنـانيين ودمشـق...ولم تنجح محاولات التهدئـة في لجم الوضع وتوسعت دائرة القتـال لتشمل منـاطق أخرى، لتُدخـل البلاد دوامـة صراعات وقتال دامت أكثـر من ١٨سنـة... الجثث مرميـة في الشوارع الكـل يجري، الكـل يصرخ، الكـل حزين لم يعـد يعنيهم شيء بقـدر رجوع الوطن، والعودة للديـار، الجدران مشروخة تئـن من وجـع الرصاص من وحشـة النـاس، من الظـلام من الآاااه... وهـا هي الطرقـات تتوشح بالأسود، هـا هي السماء تغطيها الحيرة، والأرض تعمـها الفوضى والضوضاء، لا راحة ولا هدوء، خطف من خطف ورحـل من رحـل وقتـل من قتـل وسجن في دهاليـز السجون المخفية أبريـاء لا ذنب لهم في الحادثـة، صوت الوجع مسموع في كـل الاتجاهات لـم ينجُ منهـم أحد، الكـل دفـع ثمن خطأ الفـاسدين الظالميـن المريضين بجنـون السلطة، والانتقـام الراسخ في عقـول الجبنـاء، مـا حدث للبنـان، واللبنـانيين كـان اتفاقـًا مدبـّرًا

منذ زمن، اتفـاق عربي إسرائيلـي بتضامن مع مرتزقة الداخل؛ الذين لا يزالـون يبيعـون الوطن للأعداء، وهو مخطط اسرائيلـي أمريكـي بعدم قيـام دولـة أو أنظمـة قويـة عسكريـا واقتصاديـا حول إسرائيـل بل مجموعة وعصابات لا تنتج إلا التخلف والفقـر والكراهية والحقـد بين هذه الأمم الجاهلـة.

ــ لا أدري أين ستصل لبنـان من جراء عبث وطمـع المتسلطين، مـا يوجع حقـا هو رؤية النـاس تموت بكـل بساطـة ألـم يعد في قلوبهم رحمـة، أليـس فيهم رجـل حكيـم يخرج من بينـهم يهديهم للحق، ألـم يتعبـوا بعد كـل هذا الدمار، لا أصدق مـا أراه وأسمعـه...هل هذه لبنـان وأولئك هم أبنـائها؟

ــ بـل قـل أعداءهـا، هم طغـاة ولا علاقـة للحبيبـة بهم...هم متبـرأ منهم سلفـاً. ابني فريد علينـا أن ندعو الله أن يصلح هذا البلـد ويهدي الأنفـس...لا نملـك غير الدعاء...ورحم الله من مـاتوا.

ــ يـا رب، أي هـمّ هذا الـذي نزل علينـا كالصاعقـة. أدع والله أن يمر بخيـر، وعـاجلاً.

ــ كل شيء دمر المنازل، الشوارع، المستشفيات والمدارس، الناس هربوا تناثروا (صوت بكاء جوزيف).

ــ جوزيف لا تحزن سنعود كلنا إلى لبنان الغالي وسنعمرها من جديد...لا تبكي رجاء

ــ كل ذكرياتنا طمست، أشتاق لكل شيء حتى التراب، عندما أعود سأقبله... سأحتضنه. لا أشم ريح لبنان هنا، كل شيء مختلف، الأكل النوم الأفكار.

ــ كيف حالهم؟

ــ هم أيضا غادروا لبنان؟ منذ بداية الحرب اللعينة.

ــ نستودعهم الله جميعا

ــ حتى أخوك وأمه غادروا إلى دمشق هذا ما أعرفه. فكما ترى أنا حاليا في تركيا...فرقونا جعل الله مثواهم جهنم وبئس المصير.

ــ آمين يا رب، سأرسل إليك تذكرة السفر أريدك بجواري هنا في فرنسا

ــ لا، بل أريد البقاء في تركيا، فالمكان جميل وأجد راحتي هنا

ــ جوزيف منذ قليل كنت تقول إنك لا تشم رائحة الحبيبة لبنان، أيها الطيب لا أستطيع أن أو فيك حقك مهما فعلت، تعتقد أنك ستثقل على بإقامتك عندي؟

ــ مطلقا...تعلم أنني إنسان أعيش للسلام وللرب. وأريد البقاء هنا، فرغم كل شيء أجد أناسا تفهمني، من ديني وبلدي وفي فرنسا لن أجد.

ــ فهمتك، إن سمعت عنهم أي أخبار فلتعلمني

ــ إن شاء الله.

ــ اعتنِ بنفسك. وإن أردت السفر إلى فرنسا أعلمني...وإن احتجت لأي شيء لا تتردد فأنت عائلتي.

ــ ليحفظك الرب يا بني.

توسعت تجارة فريد جدا وتمكن من فتح عدة محلات للألبسة والأفرشة المنزلية، مرت السنوات وأصبح أبا لطفلين...تخرجت زينب من المعهد

وتفرغت لتربيـة ولديها...مرت خمسة سنوات كلمح البرق وهـا هو اليـوم فريد يحتفـل بافتتـاح أو ل شركـة لـه في فرنسـا ..وككـل البشر تحملنـا العواصف وترمـي بنـا محطمين على اليـابسة، فإمـا أن نستسلم ونموت من الحزن والألـم، أو نعود لنقف على رجلينـا لنعيـد بنـاء مـا تحطم ونصلح مـا انكسـر، وحـدها الرفقـة الجميلة من تسعدنـا وتعطينـا الأمـل في الحيـاة.....بدأ الوضع يهـدأ تدريجيـا في لبنـان.. ولاحت أشعـة شمس السـلام على حدودهـا واستعـاد جنودها هيبتهم ونصرهم والثقة لشعبهم، الميـاه عادت إلى مجاريها ولكـن الخوف لازال يعيـش في أنفسهم التعبـة، مـا خلفتـه الحرب من دمار كارثـي وخسائر بشريـة عظيمـة، وتهجيـر لا يُعـاد بنائـه بين عشيـة وضحاهـا، بل تتطلب سنـوات من الصبـر والدعـم لتصبح لبنـان نجمـة تضـيء من جديد بإذن الله...

٨ آب ٢٠١٤م

أذكـر يـا عزيـزي أنهـا زارتنـي مرتيـن، لا أستطيـع أن أصف لك شعوري

وقتها لا أدري...ولكنني أشفقت عليها، كان صغر سنها آنذاك شفاعتها الوحيدة، أذكر يا جوزيف كم غسلت الدموع عينيها لقد ذبلت، كبرت تقدم بها السن لدرجة أنني لم أعرفها.... وتساءلت أهي حقا جيهان؟! أصبح جسمها نحيلا قليلا، ولاحظت أن عينيها البراقتين قد ذبلتا، لا أكذب أنني كنت مفتونا بجمالها، بشعرها الأسود المنسدل على كتفيها، بعينيها الأخاذتين، بقوامها الرشيق...لا أدري أكنت مجنونا بحبها، أم كنت أريد حضنا دافئاً أبكي عليه لا أكثر.

لقد زارتني مرتين، في المرة الأولى جاءت تستغبيني ظنا منها أنني لازلت الرجل الأهبل، الضعيف. أذكر أنها غادرت منزلي ذليلة منهارة كما لم أرها يوما... تغيرت لم أعرفها يا جوزيف، وأذكر زيارتها الأخيرة لي، وقتها أحسست أنها تبدلت، أنها تابت عن ألاعيبها، أنها ما عادت تلك الصبية الجريئة بثوبها القصير وشعرها الناعم المثير وكلامها الساحر. غادرها الشباب. لقد شممت فيها وأخيرا صدق المشاعر والقول، أجل للوهلة الأولى أدركت كم غيرتها الحياة، يبدو أن القساوة صححت مفاهيمها

واعوجاج ذاتها...لم تـأتـي من أجـل المال مثـل كـل المرات بل جاءت تطلب السماح...أتصدق لقـد عـادت لا من أجـل عينـاي ولا من أجـل المـال..، تطلب الصفـح وغـادرت تاركـة بداخلـي جرحـا عظيمـا، لا أدري يـا جوزيف لـَم لـْم أرغب في رؤيتها بذاك المشهد المخزي، لا أدري أهي الشفقة أم لازالت أحبها، لا أدري...ولكننـي لازلت أعيـد مشهد عودتها الأخيـر كـل مرة....رحمك الله يـا جوزيف وضع الورد على قبـره وغـادر، لقـد عـادت الحيـاة تزهر في لبنـان كهذه الورود على قبـر جوزيف الوفـي.

١٧ حزيـران٢٠١٨

ــ من تكـون هـذه السيـدة الأنيقـة؟

ــ انها زوجة الملياردير فريد سعـد الدين

ـ حقـا

ــ يقولـون إنها تونسية الأصل، تزوجها أثنـاء إقامتـه في فرنسا، وهي رسامة لها عدة لوحات معروضة في المعارض الدوليـة.

ــ يا لحظّه السعيد، كان محظوظا في الحياة، زوجة جميلة، وأموال كثيرة...ألـه أو لاد منها؟

ــ لا أعلم، ولكنني سمعت أنها هي من تدير كل ممتلكاته. وسمعت أيضا أنه لم يكن سعيدا في شبابه فقد مر بالكثير من الصعاب إلى أن وصل إلى هذا المكان، الذي تعتقد أنه جاء ببساطة.

ــ هيا لنجلس

تعلو المنصة فتاة عشرينية وتقول:

ــ أيها الحضور الكريم أسعد الله مساءكم بكل خير، نجتمع اليوم لافتتاح المركز الخيري لأبناء سعد الدين، هذا المركز الذي سيدعم كل المحتاجين في لبنان من كل الجنسيات بلا تمييز، وبمناسبة هذا الحفل الجميل أدعو حرمه السيدة زينب سعد الدين لإلقاء كلمة.

صفق الجميع لها وما قالته لم يكن إلا واقعا عاشته مع شريك حياتها، الذي أحبته وأخلصت له إلى آخر أنفاسه.

ــ مساء الخير، يسعدني أن ألقاكم بخير في أرض لبنان الجميلة، هذه الأرض

الطيبة التي أحببتها وسأحبها دائما ستبقى في قلبي، بلد زوجي وأبنائي التي حملت إلي أجمل الذكريات، وهذا المركز الخيري الذي يدعم ويساعد كل المحتاجين ما هو إلا جزءً بسيطاً من الأعمال الخيرية القائمة على هذا البلد الطيب، فأرجوا منكم العمل فيه بكل إخلاص لوجه الله ومن أجل المحتاجين الذين يحتاجون مساعدتكم، وأوصيكم أن تكونوا مثالا حسنا للأجيال القادمة، لأن المركز سيبقى بإذن الله فاتحا أبوابه، وأطلب منكم أن لا تنسوا الدعاء بالرحمة لزوجي العزيز فريد سعد الدين... وفي الأخير كونوا مصابيح تنير الدرب للجميع وشكرا لكم.

عيادة الطبيب لويس شيرمان...فرنسا.

ــ لا تقلق إنها حمى عادية نتيجة انتفاخ اللوزتين، وهذا الدواء سيخفف عنه الوجع.... اذهب للممرضة لتعطيه هذه الحقنة.

ــ أشكرك.

ــ هل تزور الطبيب بيرنارد؟

ــ أحيانـا، لمـاذا تسأل عليـه؟

ــ أصيب في حـادث سيـارة منذ أسبـوع وهو الآن بخيـر في منزله

ــ لم أسمع، سـأزوره وأطمئن عليـه.

ــ انتبه إلى صحتـك أيها الصغير ولا تأكـل المثلجـات.

ــ هيـا بني، اشكـر الطبيب.

ــ شكرا لك.

فريد أب طيب جدا، وزوج حنون وفـي لشريكته، وشخص مثقف واعٍ، يحترم الجميع ويهتـم بأعماله وعائلتـه التي خصص لها كـل وقتـه.

ــ سنزور صفـاقس أو لا ثم نذهب إلى لبنـان.

ــ لا أو افقـك، بل سنزور لبنـان أو لا من أجـل جوزيف الذي يتـوق لرؤيتـك منذ سنـوات.

ــ أشكرك لتفهمك الوضع يـا زينب.

ــ إن لم أفهمـك من ستفهمك؟ تعلم أننـي أحبـك جدا، وسأحبـك دائما، يـا نـور عيونـي.

قبـل يدهـا وأجلسها بقربه

ــ أريد لقـاء أخي إيـاد (بابتسامة)، أتراه يشبهنـي؟ لكـم تمنيت أن يكـون لي أخت أشتكـي إليها وجعـي، وأخ يسندنـي وقت ضعفـي، آاه يـا زينب الحبيبـة، الوحدة أمر مؤلـم فهي المنفـى، والسجن والحزن، لا تشعرين بالحيـاة أبدا، أريدك أن تنـجب لـي الكثيـر من الأطفال لكي ينسوني مـا مررت به.

ــ إن شاء الله.

ــ هذا الصبـاح وبينمـا أنـا عند الطبيب شيرمـان، تذكرت أو ل زيـارة لي هنـا لم تكن سهلة، ولـم أكـن أتوقع أننـي سألتقيـك وأحبـك وأتزوجـك.

ــ الحمد لله أنني المرأة الوحيـدة التي عرفتها وأسعدتـك، كـم أنـا محظوظة بك.

ــ وحدك من تعيشيـن بداخلـي وتقبعيـن في روحـي، وحـدك من تمتلكيـن مفتـاح هذا القلب من ترقصين فيـه، من تدغدغين مشاعري بأعذب الكلمات يـا سـاحرتي وملهمتي.

من السهل أن نحكي للغيـر تفـاصيل أو جعتنـا، ذكريـات أشخاص أحرقتنـا نتمنى لو نغيـر الساعة ونعود للماضي فنبـدل الاتجاهـات كي لا نلقـاهم، ومن

السهل أن نغيّر أماكن بقائنا، كي لا نراهم...ففي الأخير سيقولون لك كم أنت مسكين، كذلك حال فريد الذي جعل من ذكريات جيهان مسرحية شاهدها وانتهت، أسدل الستار عليها ولم يصفق لها أحد.

٩أيـــار١٩٩٥

مضت السنوات وها هي لبنان تتكحل برؤية فريد يعود إلى أرضها مشتاقا عاشقا لها، راكعا يقبل تربتها، ويستنشق هوائها، عطر أشجار الأرز الخضراء وضجيج الناس، وجمال البنايات، لقد تغيّرت قليلا وعاد كل اللاجئين والمُهَجّرين للأم المتعبة من ويلات الحرب والاغتصاب، تلك الحرب الجائرة السافرة السافلة التي قضت على أحلام الشباب، ودفنت الأطفال، وذبحت الكبار، واغتصبت النساء، وسجنت أناسا لا ذنب لهم في تلك العاصفة الهوجاء، بينما كان جوزيف ينتظره على قارعة الطريق متلهفا إلى رؤيته، أبصر سيارة أجرة قادمة نحوه، فراح يصرخ ويركض نحوها رغم كبر سنه...من

فرح الشوق والصبر الذي طال كثيـرا.

ــ بني عدت أخيـرا، بني.....يا إلهي لقـد عدت... شكراً أيها الرب... شكرا.

ترجل فريـد من السيـارة وراح يعـانق جوزيف بكـل قوة ويحتضنه ويقبـل رأسه، وشعر أنه يعـانق أبـاه، اغرورقت عينـاه دمعـا امتلأتـا وفاضتـا، من فيض مشاعر جوزيف العميقة اتجاهه.

ــ بني لا أصدق، عدت أخيـرا !!...فلتنظـر في وجهي...أحقـا هذا أنت؟!لقد تبدلت كثيراً وجهـك صار جميلا... كـأنك لم تحتـرق أبدا.

ــ لأجلك فقط عدت، صدقنـي لولاك لن أعود إلى هنـا مجـددا.

ــ لا تقل هذا الكلام، هذه أرضـك وهنـا منزلك.

ــ انظر وعدتـك أن أبحث عن السعـادة، هؤلاء هم سعادتـي...هذه زوجتـي زينب وهذا ابني جوزيف، أمـا هذا أسميته عصام وهذه مـاجدة، أمـا الصغير أسمتـه زوجتـي فريد.

تقـاطرت دموع جوزيف من الفرح، وقـال:

ــ جميعهم هنـا يـا إلهي، يـا إلهي...كـم أشعر بالسعـادة، شكـرا بنيتـي زينب

أعدت لنـا الفرح من جديـد.

سلمت عليـه زينب وقبّل الصغـار بحرارة وداعبهم ولعب معهم يحتضن هذا ويفلت ذاك، أنزل فريد الحقائب وغـادر السائق، دخل لمزرعته وراح ينظر هنـا وهنـاك في دهشـة كـل شيء تغيـّر بسبب الحرب والقصف والرصاص والحرق...تبدلـت معـالمه.

ــ هل أعجبتـك التغييرات؟ حاولت تغييّر بعض الأمور أعدنـا ترميـم مـا هـدم، عندمـا عدت لم أتعرف على المنـزل من الخراب والنهب الذي لحق به؟

ــ لا بأس به، الطلاء الجديد جميـل، أذكـر أن هذه الشجيرات لم تكـن موجودة سابقـا.

ــ صحيح، قمت بغرسها لتظلل المكان.

فتـح جوزيف البـاب وقـال:

ــ ادخلوا يا صغـاري هذا منزل والدكـم، هنـا كبـر بقرب والديه.

يقول عصام:

ــ منزل كبيـر يـا أبـي.

ــ هل أعجبـك بيت جدك؟

ــ جميـل

ــ عزيزتـي مـا بك تبدين متعبة.

ــ من السفـر.

ــ أحضرت مدبرة منزل لتخدمكـم طيلـة فترة بقـائكم هنـا...فكمـا ترى لقد كبرت ولا أستطيع خدمتكم لوحدي.

ــ خيرا فعلت.

تجول فريد في المنزل وهو يعيد لقطات من ذاكرتـه، أشيـاء كثيرة حجبت ومسحت، أشيـاء كثيرة لا تريد العودة بل أُرشفت وحظرت في زأو ية مـا من الذاكـرة المتعبة المتألمة... نظر هنـا وهنـاك للمنزل وقـال لزوجتـه:

ــ أمي يا زينب كانت تحب جمع التحف، لقد كانت معلمة وعندمـا تزوجت أبـي مكثت في بيتها لتربينـي، كنت أحبها جدا أكثـر من حبـي لوالدي.

مسح دموعه وحاول إخفـائها عنها:

ــ كلنـا نحب أمهاتنـا أكثـر من آبائنا ...

ــ لم تكن أمـاً وحسب، بل أختـا، وصديقة، تفهمنـي بلا حديث، تشتري لي كل مـا أرغب فيه، تعلمنـي برفق، تغطينـي تمنحنـي قُبلـة النوم، وقُبلـة الصباح بكل حب، لا يمكن أن أنـام بدونهـا، ليتها عاشت لتراكـم، كانت ستفرح بأحفـادها جدا وستنسى حبـي وتبدلنـي بهم...خصوصا مـاجدة هي تشبهها كثيرا.

مسحت زينب دمعتـه وقـالت:

ــ حبيبي فريد جئنـا هنـا لنفرح جوزيف لا تبكيـه رجاء، يكفيـه وجع...هو مشتـاق لك فحاول إسعـاده.

ــ سأفعـل

بعد أن شـاهدوا المنزل تناولـوا الغداء معـا، لم يخلـو جو المنزل من الضحك والحماس رفقة جوزيف، وبعدهـا توجه فريد مع عائلته إلى المقبرة حيث زار قبري والديه، ومن هناك تجولوا قليـلا ثم عـادوا للمنزل، حيث وجد المحامي نجيب آل خولـي والطبيب أمجد القاسمي ينتظرانه

ــ أهلا بكما سعدت بعودتكما بخير

صافحهما وضمهما بحرارة ثم قال:

ــ دكتور أمجد، كنت أعتقد أن مكروها أصابك حينما انقطعت أخبارك عنا.

ــ أنا بخير الحمد لله، عندما اشتدت الحرب، أمرت زوجتي وأبنائي أن يغادروا لبنان نحو أوروبا، أما أنا فبقيت لمساعدة المحتاجين ومد يد العون لهم...كان الوضع مأساوياً لا أستطيع وصفه أريد أن أنسى كل شيء حتى التاريخ لا أريد أن أذكره.

ــ نحمد الله أنك بخير، وأنت أستاذ نجيب كيف حالك؟

ــ كما ترى، لقد فقدت أخي في الحرب وعائلته وأهل زوجتي، لم يتمكنوا من المغادرة، ظنوا أنها مشكلة بسيطة وسيهدأ الوضع ولكن الحرب طالت وحرقت الأخضر واليابس.

ــ رحمهم الله جميعاً

ــ كل ما حدث لنا بسبب جهل الساسة وظلمهم لبعضهم وللوطن، ولم يتب الخونة بعدها فهناك من يريد إرجاع لبنان إلى جذور مشكلتها برعاية أيادي

غربيـة تريد الهلاك للأمة العربية، لعنهم الله، لقـد مات خمس الشعب اللبناني بسببهم، والآن من عـادوا هم بدون مأو ى وبدون أكـل، إن قلبـي موجوع جدا.

كـان حوارهم الأول عن السيـاسة التي أودت بلبنـان للانهيـار والفوضى والدمـار على جميع الأصعدة تناقـش المحامـي نجيب معهم عن السبب الحقيقـي الذي ألهب نـار الحرب الضروس داخليـا:

ــ واقع الأمر هو أن حادثة "البوسطة" لم تكـن الشرارة والسبب الأساسي لاندلاع الحرب الاهلية داخل لبنـان كمـا يتناقلـونه منذ سنوات، بل الواقع هو محاولة قتـل الزعيم بيـار الجميل. الذي كان يومها متجها لتدشين كنيسـة " سيدة الخلاص للروم الكاثوليـك " في شارع مـار مـارون، ويومها طلبت قوة للمحافظة على السير فعـاونتهم مفرزة السيـار المحلية، وفي نفس الوقت كان الفدائيـون الفلسطينيـون، يحتفلـون بمهرجان تأبينـي أقيـم في مخيـم صبـرا لشهداء الثورة الفلسطينية اشتركت فيه جميع الفصائل الفلسطينية، نحو الساعة العـاشرة تقريبـا وصلت إلى مكان الاحتفـال سيـارة الفولكسفاغن يقودهـا

شاب لبنـاني يدعى "منتصر أحمد ناصر" وهو من مقاتلـي جبهة التحرير العربية وهي الجناح الفلسطينـي من حزب البعث العراقـي، كانت لوحتها مكشوفة ومعروفة بأنها تابعة للكفـاح المسلح الفلسطينـي.

ثم حاول رجال السير منعه من المرور فتجاوزهم فاصطدم بجوزيف أبو عاصي، مرافق الشيخ بيار الجميـل وعدد من الشبـان الذين حاولـوا أيضا منعه من إكمال طريقه من أمام موقع الاحتفال فلم يأبه وتـابع مسرعاً فأطلق الرصاص على السيـارة، ثم توقف ونزل من السيارة وسقط على الأرض بعد أن أصيب بجرحٍ في كتفـه، وعلى الفور نقل إلى مستشفى القدس الذي تشرف عليه المقاومة الفلسطينية، وصباح اليـوم التـالي عندمـا توجهت دورية الدرك لأخذ إفـادته كان قد اختفى ولم يعثروا عليه.

بعد ثلثي السـاعة تقريباً وصلت سيـارة فيـات حمراء غطيت لوحتها بأوراق تحمل شعارات فلسطينية وبداخلها أربعة مسلحين فتجاوزت حاجز الدرك الذي أقيـم إثـر عملية إطلاق النار السابقة، وأخذ المسلحون يطلقون الرصاص عشوائيـاً على الأهالي المتجمعين عند مدخل الكنيسة فسقط قتيـلاً كـل من

جوزف أبو عاصي، وأنطوان ميشال الحسيني، وديب يوسف عساف وإبراهيم حنا أبو خاطر، وأصيب سبعة أشخاص بجروح مختلفة.

رد الأهالي بالرصاص على السيارة وهي تلوذ بالفرار فقتل فدائي وأصيب اثنان نقلتهما قوى الأمن إلى مستشفى القدس فيما نقل القتلى والجرحى من أهالي عين الرمانة إلى مستشفى الحياة، وفور سماع الرصاص، خرج شباب عين الرمانة من منازلهم يحملون أسلحتهم وفي اعتقادهم بأن هجوماً تتعرض له منطقتهم وراحت الأخبار تنتشر عن تعرض الشيخ بيار الجميل لمحاولة اغتيال مما زاد من حدة الإشاعات والقلق، ولكن الشيخ بيار كان قد غادر المنطقة قبل فترة دون أن يشاهده الأهالي فاعتقدوا أن مكروهاً أصابه.

في هذه الأجواء المشحونة والمتوترة جداً وفيما الأهالي مذهولين مما جرى ويحاولون لملمة آثار ما حدث ودماء أحد عشرة شاباً تغطي الأرض، والشبان المسلحون يقفون على أعصابهم خوفاً من الساعات القادمة، فجأة اقتحمت الشارع "بوسطة" مزدحمة بالمسلحين الفلسطينيين كانوا متوجهين إلى

مخيم تل الزعتر وبنـادقهم وأعلامهم وثيـابهم المرقطة ظاهرة من النوافذ وهم ينشدون الأناشيد الحماسية، فاعتقـد الأهالي أن هجوماً مفاجئاً تتعرض له عين الرمانة استكمالاً لما جرى.

لحظات وانهمر الرصاص على "البوسطة" التي لم ينج من ركابها سوى السائق "مصطفى حسين" الذي كـان يسعى بكـد وراء قوته اليومية، واثنـان من رجال المقـاومة، هذا تفصيـلاً مـا جرى في عين الرمانة قبـل ظهر الأحد ١٣ نيسان ١٩٧٥.

يقـاطعه الطبيب أمجد القـاسمي قـائلا:

ــ لا مطلقـا حادثة البوسطة لا علاقة لها بالشرارة التي أدت لاندلاع الحرب اللبنانية فأي مراقب محايد عندما يقرأ تسلسل الأحداث التي جرت يومها في عين الرمانة يدرك حتماً أن شرارة اندلاع الحرب كانت محاولة اغتيـال الشيخ بيـار الجميـل، وما تعرض له الأهالي من قبل ركاب سيارتي الفولكس فاغن والفيات الحمراء وأن مـا حدث مع ركاب "البوسطة" كان رد فعل من قبـل الأهالي المذعورين الذين كانـوا لا يزالون تحت وقع الصدمة، وفجـأة رأوا

الموكب الفلسطيني فراحوا "يطلقون النـار بشكـل لا يعبـر عن شجاعة بقدر ما يعبر عن هلع من قـادم سيء"...على كـل حال نحمد الله أننـا خرجنـا من تلك الحرب سالمين ونتمنى أن لا تعـاد مع الأجيـال الصاعدة وأن نذكـر ولا ننسى مـا حدث في حق الأبريـاء العزل وأن نترحم عليهم جميعا...وعليهم أن يحافظوا على لبنـان بكل قوة وعزة وحب.

يقول فريد متحسـراً على مـا آلـت إليـه لبنـان في تلك الفترة:

ــ ولكنها ليست البداية سبقها الكثير من الاستفزازات للجيش اللبناني من المسلحين الفلسطينيين بدعم من ما كـان يسمى الحركة الوطنية التي تدعم الدولة العربية خصوصا بعد حرب عام ١٩٦٧م بين العرب وإسرائيـل، وبعد اتفـاق القاهرة الذي فرض على لبنـان التواجد المسلح الفلسطينـي على الحدود اللبنانية الإسرائيلية وعلى الأراضي اللبنانية، مما أدى إلى الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة على لبنـان نتيجة تحركـات المسلحين الفلسطينيين التي لم تؤدي إلا للاعتـداءات الكبيرة على لبنـان من إسرائيـل في مكـان تواجد الفلسطينيين

المسلح في منطقة العرقوب عـام ١٩٧٠ حيث واجهه الجيـش اللبنـاني ببسالة وأرغم إسرائيل على الانسحاب وكبـدها خسائر فـادحة اعترفت يومها إسرائيـل بأنها لـم تتواجه بقوة مع الجيوش العربية مجتمعة مثلمـا واجهتها كتيبـة من الجيش اللبنانـي، لو أن الحكومة تعاقب كـل المتورطين فيها وتحاكمهم علنـا، ليصبحوا عبرة لكـل سيـاسي طامع طامح بخبث للوصول للسلطة بالطريقة الخطأ...كنت أتابع كـل الأخبـار بقلب جريح ينزف، ولم أصدق حينمـا انتهى كـل شـيء، الحمد لله نسأل الله أن يحفظ لنـا لبنـان الغالـي.

أمضوا سهرة جميلة وتحدثـوا عن العمل وعن الحيـاة وعن وضع لبنـان المتأزم، والحلول للخروج من الوضع الاقتصادي الراكـد.

وأشرقت الأرض بنـور ربها، وعـادت الحياة للبيت في بيروت، صوت ضحك عصام وضجيج جوزيف ملآ المكان، فريد كان طفـلا هادئـا، أمـا مـاجدة شبيهة جدتها تحب التعلم وقراءة الكتب انطوائية لا تحب الاختلاط بالنـاس، والابتسامة لا تفارق شفتـاهـا،... كـل الذكريات السوداء نحن من ننساها،

نحن من نتخطاها بإيجاد حلول ومنافذ نعبُر منها لغدٍ مشرق وحياة أفضل، تناول فريد فطوره وغادر نحو مصنع والده الذي لم يسلم هو الآخر من غضب الحرب، أخذ جولة مطوله واستمع إلى شرح المدير التنفيذي رفقة المحامي نجيب، وقرأ تقارير السنوات المنصرمة ثم قدمت له ميزانية السنة الجديدة لمجموعة مصانع سعد الدين للاستيراد والتصدير، أنهى جولته التفقدية والإصلاحية للمصنع لإعادة هيكلته من جديد، ليتوقف عند مطعم شعبي بالقرب من عمله حيث تناول غدائه... لقد مضى على زيارته للبنان أسبوعا.

ــ هنا يا عزيزتي، وفي هذا المكان بالضبط تشوه وجهي

ــ فريد لا تذكر السنوات المؤلمة فلتعش الحاضر بسعادة، كم مرة على أن أعيد لك نفس الكلام

ــ لا أستطيع أن أنسى... صدقا لا أستطيع

ــ أعجبني المكان، هادئ وجميل ما رأيك أن نبقى هنا؟

ــ بل سنغادر إلى فرنسا لا تلمحي لي بالبقاء، الوضع متعب هنا وهم قيد

الإعمار من دمار الحرب الأهلية ومخلفاتها، صدقيني كانت لبنان أجمل قبل الكارثة... والآن الأقلية من المهاجرين والمُهَجرين من عادوا، والباقي فضل الغربة على العودة للوطن، هربا من الفقر، اليوم رأيتم بلا مساكن بلا ملابس يجوبون الشوارع باحثين عن أهاليهم، عن ديارهم، عن دراهم يسدون بها جوعهم...الوضع صعب هنا، أمام لبنان تحدي كبير للرجوع للنقطة الصحيحة، حيث باقي كل الدول... ليس سهلا إعادتها كما كانت، أمامها الكثير لترسوا إلى بر الأمان، تحتاج رئيسا عادلا يعيد للكل حقه المشروع والمسلوب...رئيسا يرفعها إلى أعلى.

ــ فريد، لماذا أحس أنك تتهرب من هذا المكان؟ هل يوجد أحد في هذا العالم يكره العيش في منزل أبويه؟

ــ عزيزتي هو ليس كرها، بل هروبا من ذكريات عشتها هنا، ولا أريد أن أذكرها لأحد، أو أتذكرها مع نفسي. في فرنسا كنت قد نسيتها...وما إن عدت حتى عادت لتطاردني في كل زاوية، حاولت منذ عدنا أن أنام براحة ولكنني لم أستطع، تلك الذكريات تزعجني تؤرقني.

ــ برأي عليك أن تدوس على كل ما يزعجك وأن تواصل طريقك، لا يعني إن عشنا القهر أن نغيّر الأماكن التي حملت لنا الجميل أيضا.

ــ ربما بعد سنوات سأعود لأعيش هنا في بيروت، ولكن ليس في هذا المنزل...اليوم يزورنا إياد رفقة والدته، سأتعرف على أخي، ليت والدي اعترف لنا بزواجه، الآن على أن أصحح أخطائه.

ــ وماذا عساك تفعل؟ رحمهما الله

ــ هيا لنجهز أنفسنا.

ــ صوت جرس الباب يرن تسارع مدبرة المنزل لفتح الباب:

ــ أهلا بكم تفضلوا

يأتي جوزيف مسرعا:

ــ أهلا وسهلا سيدتي تفضلوا

تعطيه نيفين باقة الورد وتدخل، كان فريد يرتجف شوقاِ وخوفاً، متلهفاً لرؤية إياد الخجول هو يشبهه قليلاِ.. نفس العينين والأنف وبنية الجسم والبشرة، والصوت والمشي...تبادر زينب المبتسمة بالترحيب بعائلته المتكونة

من زوجة وابنـة وولـد.

ــ أهلا تفضلا البيت بيتكـم

نظرت السيـدة نيفيـن إلى فريد متوترة، وخجلة وقـالت:

ــ حفظك الله بني وأشكرك على تفهمك للوضع

ــ لا شكر على واجب

اقترب إيـاد من فريد وعـانقه والدموع تسيـل من عينيه:

ــ كيف حالك أخي؟

ــ بخير وسعيـد لرؤيتـك

ــ وأنـا أيضاً، هذه عائلتـي زوجتي عفـاف وابنتـي نورة وابني عصام، سلمـا على عمكمـا

يبتسـم فريد ويقول لـه:

ــ حتى أنت أسميت ولـدك على اسـم الـوالد

ــ أجـل

ــ هذه زوجتي زينب، وابني جوزيف وعصام ومـاجدة وفـريد

يقترب منه الأولاد ويسلمون عليه، يجلس الكل:

ــ سمعت أنك من زحلة؟

ــ صحيح، وهناك تعرفت على والدك وتزوجنا، وأنجبت إياد سنة ١٩٥٤، اسمي نيفين الرحباني.

ــ أعلم، اطلعت على أو راق زواجكما. ولم نلتقي لأحاسبك على زواجك من والدي، هو موضوع حدث وانتهى الأمر، عدت لأرى جوزيف ولأتعرف على أخي.

ابتسم إياد وقال له:

ــ صدقني لا أريد المال، لدي منزل أعيش فيه مع عائلتي وهو يكفينا، ما أريده منك هو أن نعيش بحب ونربي أبنائنا مع بعض... كم تمنيت أن ألتقيك بخير والله استجاب لي. الحمد لله.

ــ هل ستقيم في لبنان؟

ــ لا أدري فأنا لم أحسم أمري بعد

ــ تعلم أن أبي ترك مصنعا للأحذية

ــ لا اعلم، أخبرتك أنني أريد رؤيتـك ولم آتِ من أجل المال

ــ هو أيضاً من حقـك، اسمع بعد الغداء نتحدث لوحدنـا، ستبقون هذه الأيـام في ضيافتنا

ــ كما ترغب يـا أخي، (يقولها بفرح) كم هي جميلة هذه الكلمة.

نظر فريد لأولاده وقـال:

ــ هذا عمكـم، وهـذان ولداه ونحن عائلة واحدة لا فرق بينكـم، وهذه جدتكم

ــ أشكرك أخـي

ــ أخي إيـاد منذ أن علمت بصدق كلام والدتك حافظت على حقك من الضياع سنتحدث لاحقـا بخصوص هذا الأمر.

قـام إيـاد من مكـانه محاولاً عنـاق فريد، كـان شعورِا لا يوصف، سعـادة عظيمة لامسته، وأخيرِا صار المنزل دافئـاً بعائلة كبيرة وعـادت إليه الأسماء الراحلة، كـل هذا بفضل الله وبفضل زينب التي لم تتركه دقيقة واحدة، إن بعض

النساء يأتين على هيئة ملائكة فينرن المنازل ويصلحنها ويعمرنها، وبعضهن يأتيننا في أثواب شياطين يدمرن ويكسرن قلوب البشر ثم يغادرن كأن شيئا لم يكن تاركين ورائهن أبشع الصور والذكريات...مع الكثير من الندم والحسرة.

اليوم ليس ككل الأيام منذ عودته، بينما كان فريد يغرس بعض النباتات سمع صوت أقدام تدنو منه، وأحس بأنفاس تلهث بالقرب منه، التفت فإذ بها جيهان، في البداية ظن أنه يتخيل هي بادرته بدموع، أما هو فبقي ينظر إليها غير مصدق، كم تمنت ملامسة خده الذي شفي كالسحر، معجزة تحققت في غيابها، ولكنها لم تستطع الاقتراب، نظرت إليه وفي قلبها ألف قصة وقصة تريد أن تحكيها له...أما هو فالدهشة عقدت لسانه، وبينما راحت هي تتخيل الحديث وتتوهم بأن الأرواح قد تعانقت.....كان هو في حيرة من أمره وفي صدمة وخوف، يتساءل أهي ذكرى من الماضي تطارده اليوم أم حقيقة.؟!!!..ولماذا عادت بعد كل هذه السنين؟.

ــ حبيبي لقد عدت، فأنـا لم أغب طويلا مرت ساعات أو أقـل من الساعة ...كيف حالك؟ هل اشتقت لي أم أنـا من تفيض شوقـا لك، انظر لقد عدت ولن أتركك مجددا، كـم مضى على غيـابي؟ الليل بطوله أم النهار بأكمله، لكنـك لم تغب عن بالـي ولا عن منـاماتي، لأجلك عدت وحدك أنت من تستطيع إخمـاد نـاري من تعوضنـي عن كـل دموعي من ستـداوي جروحي...لماذا تنظر إلى باستغراب، لا تقـل إن ساعتـي معطلة وعدت متأخرة، كنت أحسبها بالدقـائق، لم يفت الأوان بعد أعلـم. فإحساسي لن يخطأ،...أعلم أنك تحمـل لي كراهية كبيرة، ولكن قبـل العتاب سأخبرك، كـم أنـا مشتـاقة إليـك، لتلك الأيـام الحميمة، حينمـا كنت رجلا تخاف على عرضي وعلي من الأذى، كنت أنـا الحقيرة التي باعتـك من أجـل المـال، أعلم أنك تناسيت وجودي تماما، صرت لا أهمـك لا تذكـر حتى من أنـا، دعني أخبرك أنني تعلمت الكثير في رحلتـي نحو الغرب، أدركت أنها كانت غلطة لا تغتفـر ، حينمـا تركتـك لوحدتك لألمـك، أدركت كم كنت قـاسية حين خسرتك ضاع مني الكثيـر، خسرت العـالم كله، بدونك أنـا غريبـة شريدة معذبة محرومة من كـل الأمور،

من الصدر الحنون، من حبيب كـان يراني الأميـرة وأنـا أراه الوحـش المخيف، وأخيرا علمت كـم أحببتنـي.؟ كـم كنت توقرني، ترعـاني تهتم بي وبمـا أحب وتتجنب مـا لا أحب، قابلت حبك ظلمـاً، ولم أعره اهتماما، لقد خسرتك وخسرت نفسـي...مرت على سنـوات بكيت فيها عزلتي قسوتي ودفعت ثمن طمعـي غاليـا، ولكنـك لم تغب عني لحظة صدقنـي...عدت هـا أنـا هنـا انظـر الي...أرجوك تكلـم. أرجوك لا تدعني أتألـم، قـابل عودتي باللطف... قـابلني بالوجه البشوش وانس تلك البلهاء اللعوب، لقـد عـدت، لقد تبـت، فلتنظر إلى حبيبـي... رجاء لا تعاتبنـي.

الصدمة خنقـته لـم يعـد قـادراً على حمل ثقـل جسـده المتعب من رؤيتها، لم يقو على التحدث ولـم تصدق عينـاه عودتها في هذا الوقت المحرج، فبـادرته بالحديث:

ــ ك ... كي... ف .. حا .... لك؟

ــ كنت بخيـر منـذ قليـل

ــ لا أعلـم كيـف قـادتني قدمـاي إلى هنـا... ولا أعلم هل أنت نفـس

الشخص الذي تركتـه منذ سنـوات، أم شخصاً آخـر !؟

حاول كظـم غيضه وتهرب من النظر إليها ملقيـاً ببصره للأرض وأجابها ببرودة:

ــ شخص آخـر، بروح جديـدة، وعقـل جديـد، ولم تتركني أي امرأة !!!....

يبدو أنكِ أخطأت في العنوان سيـدتي.

ــ فريد

تهرب فريد من النظر إليها مجدداً بينمـا راحت هي تتحدث إليه:

ــ عدنـا إلى لبنـان منذ أيـام، فحملتنـي قدميـاي إليـك، لا أعلم لماذا؟ أهو شوق أم شـئ آخر لا أعرف كيف أفسره لك؟ صدقـاً.

ــ غير مهم.

بينمـا كانت تنظر إليه، جاء جوزيف يركض بالكرة نحو والـده:

ــ أبي هل تحتاج للمساعدة؟

تقترب زينب منهم:

ــ فريد حبيبـي ألـم تنتهي من الغرس؟

ــ بقي القليـل يـا حبيبتـي

عقدت الدهشة لسان جيهان، لقد ظنت أنها ستجده مثلمـا تركتـه، ذاك المشوه الحزين، المنزوي في غرفته المظلمة، والذي قـاطع الحيـاة خوفـا من النـاس.

ــ من هذه السيـدة؟

نظر إليها وقـال:

ــ سيـدة أضاعت طريقها

اغرورقت عينـاها وامتلأت دموعـاً، وهي تنظر إلى فريد، هذا الشخص الجديد القـاسي، ثم مـاذا تتوقع بعد كـل ألاعيبها أن يحتضنها، أن يرحب بهـا ويعطيها مفـاتيح قلبـه وبيتـه، لقد خابت كـل ظنونها وحفـظ مـآربها القديمـة، ابتسمت زينب بطيبة وقـالت لها:

ــ تفضلي هذا بيتنـا، ادخلـي لتشربي معنـا الشاي، وسيوصلك السائق لمنزلك.

ــ لا.... شكراً ... لا أريد... شكراِ لكم...سأغـادر

غـادرت مسرعة وتعثرت خطواتها، وتلعثمت كلماتها، بينمـا راح فريد يقبـل زوجته ويبتسم لها

ــ عزيـزي لِـماذا لـمْ تدعهـا للمنزل؟

ــ زينب نحن لا نعرفها، كيف ندخلها المنزل، لا تكونـي طيبـة بزيادة فيستغلونك ضعفـاء الأنفس.

ــ ماذا كنت تفعـل؟

ــ اغرس ورووداً ونباتـات.

ــ هل أساعدك؟

ــ كم أنـا فخور بك، هيـا عانقينـي.

ابتعدت جيهـان عن أعينهم وظلت تراقبهم من بعيد بقلب موجوع، نـادم على الرجوع، هي لم ترى في عينيه حجم الحب الذي يكنـه لها، فالجشع أعمـاها، ولكنها اليـوم رأت ملامح الكره في أعمـاقه تجاهها...كانت تائهة، تئن، تتمنى لو يعود الزمان لتبقى بجواره، لتنجب له أطفـالا لتسعده، تمنت لو أنها مكان زينب، تحظى باهتمامه وتقديره، من تشـاركه فرحه وقرحه أخرجت ورقة بيضاء ومزقتها والدموع لا تفـارق عينيها.

كتبت لك

كتبت لك عن كل شيء.... كتبت

عن رحيلي يوم خذلتـك.... كتبت

يا ليتني كنتُ لك، واخترتك

آسفة لأنني...

كنت الجبانة التي تنازلت عن الشهادة

من أجل الحب الحلال

آسفة لأنني

تركتـك لغيري

أحببتك جدا، حقـا، نعـم

وها أنا اليوم عدتُ إلى رشدي

وعدت ليـوم الفراق

الناس تقدمت وأنا لازلت أعيش لحظة الفراق

الناس وصلت للمنتصف، وأنـا عوقبت لخيانتـك

لازلتُ أراسلك في مخيلتي

وأتخيل يوم اللقـاء

كيف سيكون اللقاء بعد سنينَ مضت، سنينَ خِذلان

قالـوا إنك تزوجت وأنجبت

أما أنـا فأجهضت آلاف المرات

قالـوا إنك تعيشُ الحاضر

وأنا لازلت في تلك النقطة

لا تقدمتُ ولا تأخرت

أجل إنه عقابـي، خذلتـك يـوم كنتَ في ذُروةِ عِزك وعشقـك لغبية

لم تكن في الواقع إلا فتـاةً لا تعرف كيف تعيش وتختـار

قـالوا إنك تعيش لازلت حيـا

أما أنـا أراسلك من قبر الحياة

أنا هنـا أهلاً، منسية بلا سند

عدت بعد طول غيابٍ، صحوت

أنا هنـا، مرحباً هلا أجبت؟

في انتظار القرار

هبت ريـح خفيفة بعثرت تلك الرسالة الممزقة، كتمزق سنين الحرب التي شردتهم وحرمتهم متعة اللقاء...لبنـان عاد لكـل اللبنانيين العائدين من قهر البلدان، لم يخبر فريد أحدا بزيارة جيهان لمنزله، معتقداً أنها لن تعود، بينمـا عادت جيهان للمنزل حزينة من كلمات فريد، ظلت تعيدها وتعيدها إلى أن نامت...متلحفة لحاف الخيبة والذل.

"أضاعت طريقهـا، سيـدة أضاعت طريقها...وفضلت المال على الحب، جرحت قلب رجل يهواها ليجرحها بعد سنوات الكثيرون، فالحب الطاهر لا يوزن بأموال العالم كلـه."

ــ أخي

ــ أهلا إيـاد، كيف حالك؟

ــ بخير ما دمت أنت بخير

ــ أو د أن استشيرك بأمر، أحتـاجك أن تقف بقربي، أريد أن أفتح شركة بناء

يبتسم فريد ويقول له:

ــ توكل على الله وأنا معك

ــ حفظك الله لي يا أخي العزيز، أشكر الله لأنك بقربي

ــ ومتى تنوي افتتاحه؟

ــ هذا الأسبوع

ــ أتحتاج شيئا؟

ــ سلامتك، أريد حضورك فقط

مرت الأيام مسرعة، مضى على وجود فريد في مزرعته شهر وحان وقت العودة إلى فرنسا، ودع الجميع متمنيا لهم الخير، جيهان استقرت في لبنان، فقبل الحرب الأهلية اللبنانية تعرض زوجها لحادث وأُدخِل غرفة العناية المشددة، ولكن حالته كانت خطيرة ولم يعش طويلا...جيهان لم ترغب أن يرحل ألكسندر لأنه الشخص الوحيد الذي يحبها بصدق بعد أن فقدت كل شيء...

ــ عليك أن تقاوم وتعيش من أجلي، رجاء لا ترحل...ألكسندر حبيبي هل تسمعني؟ أرجوك لا تتركني وحيدة... فلتفتح عينيك...أليكساااندر...

لا... لا...لا ترحل لاااااا.... حبيبي... لاااااا...

حينما نفقد من يحبوننا ندرك تماما ما كان يقصد بالحب، تلك الأرواح الحنونة التي ترحل بسرعة، هل يشتاقون إلينا مثلما نشتاق نحن إليهم؟ وهل يروننا؟ هل يشعرون بوجودنا؟ بدعائنا لهم؟ ليتهم يعودون ولو دقائق نسرق منهم بعض العطف والحنان والقبل، بعض العناق، ليتهم يسمعون كم كنا نحبهم، كم كنا أغبياء ولم نقتنص الفرصة بقربهم...لنقول لهم نحبكم بقدر اتساع هذا الكون، نصحوا من غفلتنا عندما يصبح النبض خطا مستقيما، عن تلك الأجواء أتحدث عن موت الزوج، عن رحيل الأم، عن أجواء الجنائز السوداء، عن ذاك الوجع والخوف من أنهم لن يزورونا أبدا، عن الرحيل المجهول أتحدث.

تجلس لوحدها مصفرة الوجه شاحبة ذابلة، تعانق صورة أمها الراحلة، يدخل عدنان وأمير إليها؛

ــ أختي لماذا هذا النحيب كله؟ ألم توصينا أمنا بعدم البكاء والدعاء لها؟

ــ لا أستطيع...أبكي على كل شيء، على ألكسندر وأمي وبعض الأشياء راحت بغير رجعة، آآآه ليتني أستطيع إرجاع الزمن لأعيدها...ليتني ما تركتها ترحل عني.

ــ أختي نحن نحبك، رجاء امسحي دموعك وتعالي لتأكلي معنا، شيرين أعدت لنا طعاما لذيذا، هيا أرجوك.

جلست معهم لتأكل، وعيناها على صورة جدارية لوالديها، هو الحنين من يحملنا لمن رحلوا فنذكر كلماتهم بحب، قال لها أمير:

ــ كانت تحبك كثيرا، تذكرك بالخير، تشتاق إليك فتجلس وتبكي، لم تحب يوماً فكرة سفرك البعيد

ــ لقد عدت ولن أسافر مجدداً

قالت شيرين بفرح عظيم

ــ حقاً لن تعودي إلى السفر مجدداً؟

ــ لا لن أعود، سأبقى في لبنان بقربكم.

ــ أنا سعيد جداً يا أختي، سنعيش مع بعض وأخيراً

يقـاطعهم عدنـان قائـلا:

ــ لقد وجدت عملاً في جريدة الحدث، وسأبـاشر العمل بدءًا من الغد

ــ مبارك لك يا أخـي

ــ أمـا أنـا فسأبحث عن عمل لأساعدكم في مصاريف البيت

صوت طرق على الباب، تذهب دانـا لتفتح:

ــ ساعي البريد أوصل هذه الرسالة

أعطتها لجيهان، فتحتها فوجدت مبلغـا من المال

ــ مـال!!! مـا هذا؟

ــ هو مبلغ يصلنـا كـل شهر دون انقطاع، طوال هذه السنوات عشنـا بفضله

ــ ومن يرسله؟

ــ زوجـك عاطف

ــ غير صحيح لا أصدق

ــ أمي زارته منذ سنوات وأعتقـد أنها كانت على علم أنه المرسل

بعد الغداء انصرف عدنـان وأميـر لأشغـالهم، رفعت جيهان سماعة الهاتف

واتصلت

ــ ألـو مرحبا.

ــ عاطف؟

ــ نعم من المتصل؟

ــ كنت أريد معرفة أمـر، هل أنت من ترسل المال كـل شهر لعائلتي؟

ــ من أنت؟

ــ جيهان

انفجر ضاحكـا وانقطع الاتصال، لقـد علمت من ذاك الضحك أنه لا يمكن أن يكون هو المرسل، وتساءلت من يكون صاحب الكرم والأخلاق النبيلة، الذي لم ينسى عائلتها طوال هذه السنوات وبقي يرسـل لهم بانتظام نفس المبلغ الذي يكفـي حاجتهم ويزيد. وتساءلت هل علمت والدتها بالحقيقة أم لا قبـل موتها؟ وان كانت علمت فلمـاذا لـم تخبرهـا بالوضع، ولزمت الصمت؟

أمـي....

يـا نبض فؤادي، وسر وجودي وسعـادتي، لم أستطع إخبـارك كـم كنت

أحبك، كم كنت فخورة بك، يا نهر الحنان ومصدر الخير كله، سامحيني لأنني لم أكن كما تمنيت، ابنة صادقة، وزوجة طيبة، كل ما فعلته أنني ارتديت لسنوات ثوب الخيانة وادعيت الشرف، ولكنني أقسمت منذ رحلت أن أعيد بناء حياتي مثلما ربيتني صغيرة، طيبة أصيلة تحمل في قلبها كل النبل والصدق، سامحيني رجاء...أحبك أمي.

وتُغيّر الحياة طباعنا بعد مد وجزر، فنستغرب مع الوقت من حجم التغيير المفاجأة، هي الأيام من تربينا بصفعاتها بسقوطنا بجراحنا، لتعيد بقسوة ترتيب كل الصفحات المبعثرة، لقد تقدم الوقت وقصر العمر، وشاخت كل الرغبات فينا، ولم نعد نرغب بها مثل البداية بحرارة.

منذ أن عصفت بنا الحرب اللئيمة وتساعر لهيب شرهم المستعر قام خونة الوطن بتمهيد وتسهيل دخول الأعداء للوطن، وحينما علمت أن الوضع يزداد سوءًا وتدهوراً، خرجت مع إخوتي نحو قبرص، نجونا بأعجوبة من الرصاص والذبح والخطف، ولكن أخي أمير لم يخرج معنا، اعتقدت أنه

سيلتحق بنا وخاب ظني.... فقدناه في الحرب، لا أعلم إن كان ميتاً أم حياً، أبقاه حب الوطن والدفاع عنه، أين هو؟ ومع من؟ وكيف حاله؟ وإن كان قد توفي، بأي زاوية من الوطن قد دفن؟ هل كفنوه؟ هل صلوا عليه مثل أي قتيل؟ تزوج أخي عدنان، وأختي شيرين في بلاد الغربة ولم يحظيا بحفل بهي يسرهما، أما أنا فما كان لدي أي هدف غير البقاء بجوار أختي دانا، إلى أن أكملت دراستها وتزوجت هي الأخرى، وخلال هذه الفترة تقدم لخطبتي رجل، ترددت واعتذرت منه بلباقة ولكنه تمسك بي وظل يطاردني من مكان إلى مكان، هو كان أرملا مثلي، كان همي الوحيد إيجاد أخي أمير، لم أترك لبنانيا داخل لبنان إلا وسألته عنه.... لا أحد رآه أو سمع عنه، أين أنت يا حبيبي؟ ... أين؟ تخيل حجم وجع عائلتي، لغاية الساعة نذكره ونتحدث عنه كأنه موجود.... وقد عدت إلى لبنان لأبحث عنه عن ريحه وأتقصى الأخبار، أعلم أن هناك مختفون كثيرون اختطفوا ولم يعثر عليهم بعد... حينما عدت إلى هنا أدركت من حجم الدمار أن لبنان يستحيل إعمارها بين سنة أو سنتان، البنايات تهدمت والأرض احترقت...أحببت

الصراخ، أحببت منـاداة الأحيـاء، من حالفهم الحظ ونسيتهم الموت... أيها الأحيـاااااااء أهذه لبنـان أم مقبـرة الحيـاة؟ أيها العائدون المجروحون الخائفون أهذه أرضنـا أم قطعة سوداء أرض للغربـاء؟؟؟؟؟... لاحظت مشردات تبتـن في العراء والتقيت بنسـاء يبحثن عن فلذات أكبـادهن، عن أشقـائهن، وآبائهن، يبكيـن يصرخن، ويقعن على الأرض مضطربات، في وجوههن ملامح العذاب والاحتيـاج والشقـاء...ترهقهن المسكنة...أتدري مـا حل بهن؟ الاغتصاب والتعذيـب، أتدري مـاذا حل بهن؟ هن فضلن البقـاء في الوطن وخدمته والدفـاع عنه، والبقـاء كان له ثمـن، الأغنيـاء هاجروا والبؤسـاء من دفعـوا بأبنـائهم ودمـائهم من أجـل تحريرها من البطش والحرام والفسـاد...وفي الأخيـر ردوهم على أعقـابهم خائبيـن.

عدت محملة بشوق عظيـم لزيارة بيت والداي ولكننـي لم أجده، تهت بين الركـام، في لجة الذكريـات، وبين الحطام، عدت بعد طول انتظارٍ مصحوبٍ بآآآلام، للبحث في المجهول عن بصيص أمل لرؤية أخي الصغير، سألت عنه كـل العـائدين ووصفت لهم جماله وحسنه ولكنهم لم يروه، بأي أرض تنـام

وتتغطى يـا عزيزي دلنـي إليـك دلنـي... اليـوم أدركت كم مرت السنين، اليـوم انتبهت للتجاعيـد تغزو وجهـي، للملامح تتبـدل، للشعر الأشيب، للجسـد المنهـك... ننـام على أمـل اللقـاء ونصحوا على فـاجعة الفراق، رحل من يحبوننـا جميعهم والعمر أيضا رحـل...وتنتهي قصة حبنـا بفراق، لتبـدأ عند غيرنـا قصة عشـق تتكـلل باللقـاء والزواج فهنيئـا لهم...حينـما ينتصر الحب.

٠٦ أيـــلـول ٢٠٠٤.

ارتـدت ملابسها على عجالة ووضعت عطرها المفضل، وارتشفت بضعة رشفـات من الشاي وخرجت مسرعة...

ــ أمـي سأذهب لقـد تأخرت، اعتنـي بنفسـك يـا حبيبتـي.

أغلقت الباب بقوة، وانطلقت بكـل حيوية ونشـاط، لقـد بدأ موسـم دراسي جديد والجامعة لا تبعد عن المنزل كثيـرا، مسـافة سـاعة في الحافلة، نزلـت وهي تنظر هنـا وهنـاك إلى أن أشارت إليها رفيقتها جنـا، اقتربت منها وسلمت

عليها.

ــ كيف حالك؟ لقـد اشتقت إليـك كثيرا؟

ــ وأنا أيضا، وصلنـا البارحة من هولنـدا، كانت عطلة مذهلة، ليتـك كنت معنـا.

ــ لندخل، سنسجل معـا في صف واحد ثم نذهب لنشرب القهوة، أريد أن تحكـي لي عن كل الأمـاكن التي زرتها في هولنـدا.

ــ حسنـا، وقد جلبت لك صورنـا، أتذكرين ابن عمي فـادي، كان معجبـا بك جدا في الثانوية، سألنـي عنك البارحة، ألا تفتحيـن له باب القبـول؟

ــ مـا به؟

ــ هو الآن يدرس الهندسة، ألا توافقيـن على طلبه؟

ــ رجاء يـا جنـا كم مرة على أن أخبـرك أن أمي تطلب مني ألا أتعلق بأحد، ستغضب مني إن أحببت... تريدنـي أن أدرس وأنجح.

ــ أمـك إنسـانة رجعيـة.

ــ رجاء، لا تخطئي في حق والدتـي، لن أسمح لك، مـا مرت به في حيـاتها

جعلها تكره كـل شيء.

ــ أمي أيضا تعذبت، كلهن عايشن الحرب بوجع.

ــ هنـاك مقهى قريب من هنـا لنذهب إليه.

دخلتـا للمقهى وجلستـا... وطلبتـا فنجاني قهوة.

ــ أين قضيت عطلة الصيف؟

ــ عند خالي في أستراليـا

ــ ألديه أو لاد؟

ــ نعم، هم إخوتـي، لا تدعي الشيطان يوسوس لك ...تتخيلين أشيـاء لا تحدث.

بينمـا راحت تتلـذذ بمذاق القهوة ورائحتها، جلس خلف جنـا، يقرأ الجريدة وهي تنظر إليه، شيء خفـي يسحبها نـاحيته، يجذبها يدق باب قلبها... أشقـر الشعـر ذا عينيـن عسليتيـن، أبيض البشرة ذو قـامة طويلة... ابتسمت وحاولت التهرب منه وجنـا تسرد لها تفاصيل الرحلة الغربية، ولكنها لم تستطع منع نفسـها من التحديق به، وحينـما انتبهت إليها جنـا، فهمت أن هنـاك فكرة

غرامية ستولد في قلب صديقتها، ومـا إن نظرت خلفها حتى فهمت الوضع.

ــ مـا بك؟ مـاذا أصابك لمـاذا تطاردين الشاب بعينيـك؟ سيراك ويعتقد أنك مجنونة.

ــ يبدو طالبـاً هو يحمل حقيبـة.

ــ لا أعتقـد ذلك، سيشرب قهوته وينصرف.

اكتفت بالنظر إلى حركـاته إلى أن غـادر المقهى، وهي تتبع خطواته الهادئة، كم يبدو عليه الوقـار واللطف وحسن الخلق، اقتربت من الطاولة التي كـان يجلس فيها وخبأت فنجان القهوة وأخذت الجريدة.

ــ هل جننتِ؟ مـاذا تفعليـن؟ قد يراك النـادل ويتهمك بالسرقة.

دفعت ثمن فنجاني القهوة والزيـادة وغـادرت.

ــ أيمكـن أن تفسـر لي هذا التصرف؟

ــ إنه جميـل جدا وجذاب، لقد أعجبنـي.

ــ يبدو أنـك جننتِ حقـا؟، من أو ل نظرة؟؟؟؟ غريبـة أنت؟ ... مجنـونة أنت؟

في اليـوم التـالي جلست مع جنـا في قـاعة الدرس وإذا به يدخـل حاملا محفظته...

ــ انظري، انظري....

ـ يـا الـهي مـا هذه الصدفة الجميلة؟

ــ أعتقد أنه سيدرس معنـا

اقترب من الكرسي على المنصة وقـال:

ــ صباح الخيـر، أنـا الأستـاذ فريد سعـد الدين مدرس اللغة الفرنسية، وأتمنى لكم عـاما جميلا برفقتـي...اليـوم سأخصصه لأتعرف عليكـم، وغـدا إن شاء الله سنبدأ أو ل درس، وأتمنى أن أكون عند حسن ظنـكم.

ــ هو أستـاذ هل سمعتـي؟

لم تخف إعجابها به الذي فـاق حد الثمالة وأصبحت تطارده في كـل مكـان بعينيها، وازداد عمق الحب بمرور الأيـام، وعندمـا أنهى حصته غـادر فغـادرت مسرعة ورائه، ركب سيارته الجميلة وانطلق.

ــ جنـا أريد أن أعرف عنه كـل شـيء، إنه ساحر.

ــ أريد أن آكـل، لم أتنـاول فطوري هذا الصباح

ــ سأدعوكِ للغـداء شرط أن تساعديني.

ــ بمـاذا؟

ــ بمعرفة كـل شـيء عنه، فأنت تحبين التجسس ومراقبـة النـاس، وتقصي

أخبارهم...وهذا سهل عليك وصعب علي.

ــ حسنا مواااافقة... أريد أن آآآآكل.

مرت الأيام بسرعة، وازداد جنونها به، وخجلها منه لا تكلمه بل تطلب من جنا طرح الأسئلة عليه، وذات مرة كتبت له رفيقتها الطائشة المندفعة رسالة تخبره أن من بين طالباته فتاة تهواه حد الجنون، لم يصدق الأمر في البداية، بل حاول معرفة من تكون هاته البنت، وفي كل مرة تدس جنا رسالة في كتابه وهو منشغل في حلقة وسط البنات يشرح لهن ما لم يفهمنه. مع الوقت تصادفه تلك الرسالة، اختلط عليه معرفة من هي فالكل معجبات ذائبات فيه غيورات عليه، وعند خروجه من الجامعة اعترضته فتاة جريئة بطبعها تختلف عن كل طالباته...

ــ أستاذ ألا تدعوني لشرب الشاي؟ ألا أستحق بضعة دقائق معك؟

كانت تصرفاتها المثيرة، لحركات شفتيها واللعب بخصلات شعرها وتمايلها تشعره بالانزعاج، اعتذر منها قائلا:

ــ كنت أتمنى ولكن، أريد استقبال والداي في المطار.

ــ آآآآه، والداك لا يقيمان هنا؟

ــ نعم...أستأذنك، نلتقي لاحقا.

ــ أستـاذ سأنتظر دعوة منـك، لا تتأخر علي وسأغضب إن نسيتنـي.

ــ عندمـا أجد الفرصة.

حل الليـل واجتمع فريـد بوالديه وبمـاجدة، كانت سعـادة فريد الأب لا توصف بأولاده:

ــ كيف كـان يومـك في الجامعة؟

ــ الطلاب أحبونـي جدا وأنـا سعيد بهذه المحبة، أحس براحة وأنـا أعلمهم وأرى حماسهم وشغفهم للتعلم.

ــ تعلـم أننـي تمنيت أن تساعد أخويك، وتمسـك شركة من شركاتنا...بني أنت لا ينقصـك العمل، فلتسافر وترى العالم وتمرح.

ــ أبي تعلم أنني أحب الاعتمـاد على نفسـي ثم إن مـاجدة قد استلمت مجلس الإدارة لشركاتك في فرنسا، أنـا سعيد هكذا.

ــ حبيبـي فريد، إخوتك تزوجـوا واستقـر كـل واحد في منزله، متى تنوي الزواج، أريد أن أفرح بكم.

ــ عندمـا أجد من تلهمنـي وترتاح لها نفسـي، الزواج ليس مشروعا لإنجاب الاطفال وحسب، بل هو تفـاهم ومحبة.

ــ وأنت أيضا، عليـك إيجاد الشخص المناسب قبل أن يذهب الشباب هبـاء.

ــ إن شاء الله

ــ فلتترك ابنتي تُسير حياتها بنفسها.

ــ أنت تزيدها بكلامك غرورا وتسلطا، ولن تفكر بالزواج أبدا.

ــ هي ماجدة، حبيبتي وأمي، نور عيوني... يحق لها مالا يحق لك

تقوم ماجدة وتعانقه وتشبعه قُبلاً:

ــ أبي الحبيب أحبك جدا، يا أو سم أب وألطف رجل.

ــ وأنا ألا أستحق قبلة منك؟

تقبل أخاها وتعانقه، لقد تمكن فريد من زرع حب الدين والوطن والأسرة فيهم، علمهم وثقفهم وتركهم يخرجون للعالم وهم أكثر وعياً وتحضراً وقوى فيهم حب العائلة، كل الصحف العربية والغربية تكتب عن أعمال وحياة فريد الأب بما أنه رجل أعمال مشهور، ولكن فريد الابن يحب البساطة والابتعاد عن كل الأضواء، لم يظهر عليه الغنى مطلقا، بل كان يظهر دائما في خانة الشاب البسيط الذي يتعب لأجل لقمة العيش.

أتت الأمطار الموسمية هذا العالم مبكرا، دخل للجامعة يجري كي لا يتبلل، وفجأة اصطدم بحاجز أسقطه أرضا في ردهة الباب، تبعثرت كتبهما بجانبهما، حاول أن يساعدها على النهوض وراحت تزيل الغبار من بنطلونها ومعطفها.

ــ أعتـذر كنت مسرعا واصطدمت بك...لم أكـن منتبهاً.

ردت عليـه في خجـل وبصوت دافئ، هـادئ، نـاعم.

ــ لا عليـك أنـا بخيـر يـا أستاذي.

جمعت كتبها ودخلت للصف مسرعة متوترة، ألقى درسه كالعــادة ثم غـادر نحو مكتبة الجامعة... جلس على الكرسي وأمسـك بكتابه، فإذ به ليس له، لقـد تبادلا الكتب، ألقى نظرة عليه فلفت نظره ظرف أحمر مكتـوب عليه

غـارقة في حب أستـاذي مـا العمـل؟

لمـاذا، لمـاذا...؟

منذ رأيتـك تبـدلت كـل الحيـاة والساعـات

زدت تعلقـا بها لأجلك

أتيتني في هيئة مـلاك

لتمحو عني آلام السنوات

لمـاذا، لمـاذا؟

تسللت إلى كاللص

من بينهم ملكتنـي، مـا عدت أخرج من عالمك

من هوس هذا الحب

من جرعات النظر إليـك أصبت بالإدمان، بالهلوسات...

النجـدة، إني أغرق، في أيـامـك.

توقف قليـلا ثم قـال:

ــ كـل من يدرسن ذاك الصف هن نسـاء عدايَ أنـا... أيعقـل أن تكـون هي من ترسـل لي تلك الرسائل؟

في المساء التقى بهـا تجلس بمفردها، اقترب منها وسلمها الكتـاب مبتسما.

ــ لقد تبادلنـا الكتب بالخطأ، تفضلـي هذا لك.

ــ لم أنتبه آسـفة.

أخذت كتـابها وأخرجت من حقيبتها كتـابه...أعطتـه له وهو ينظر إلى وجنتيها الحمراوين.

ــ ذكرينـي باسمك رجاء فأنـا أنسـى

ــ اسمي فريدة عصملـي.

ارتسمت على شفتيـه ابتسامة عظيـمة، حينـما نطقت باسمها.

ــ هل تشربين معي عصير أو أي شـيء؟

ــ الآن؟

ــ اذاً كـان ينـاسبك نعم.

ــ موافقـة، موافقـة.

غـادرت معه نحو المقهى القريب من الجـامعة.

ــ أين تقيميـن؟

ــ هنـا في بيروت

ــ كـم عمرك؟

ــ تسعة عشرة سنـة

ــ لازلت صغيرة

ــ أنـا لست صغيرة، لقـد كبرت

ضحك وقـال:

ــ أنتن النسـاء لا تعتـرفن بأنكـن لا زلتـن صغيرات، وحين تكبـرن تخفيـن سنكـن الحقيقي، لمـاذا أنتن عنيـدات ويصعب فهمكن.

ابتسمت، فقـال لها:

ــ حدثينـي عنـك أكثـر.

ــ أنـا أعيش مع أمـي، وأبـي مـات منـذ سنـوات.

ــ أليـس لديك إخـوة؟

ــ لا

ــ ومن يعيلكما؟

ــ نعيش براتب والدي، الحمد لله لا ينقصنا شيء

ــ تحبين اللغة الفرنسية

ــ أجل

ــ سأساعدك في تعلمها، يسعدني أن أراك فتاة ناجحة

ــ أشكرك

ــ أنت مرتبطة؟

ــ لا

تلعثم وهربت منه الكلمات، وتسلل إليه الإعجاب الجارف، وراقت له، باستحيائها وهدوئها ولطفها:

ــ إذا احتجت لأي شيء اعلميني وسأساعدك مهما كان الأمر صعباً في نظرك.

ــ كنا نعيش في أستراليا مع خالي وخالاتي...وعادت أمي لتبحث عن خالي الأصغر الضائع في الحرب الأهلية...هي لا تكف عن البكاء عليه أيمكنك مساعدتها؟

ــ هذا موضوع صعب جدا، فأنت تعلمين أن أكثر من ١٧ألف مفقودا في الحرب الأهلية لا يزال مصيرهم مجهولاً، وتستذكرهم لبنان في كل عام من نهاية شهر آب، في إطار اليوم العالمي للمفقودين، سامحيني على ما سأقوله ولكن أمك تنتظر المستحيل، لقد قتلوا جميعاً في الحرب.

ــ هي تبحث منذ بداية الحرب ولم تتعب في البحث.

ــ قتل الآلاف وهجر الآلاف... ولم ينج أحداً من ويلاتها...انسي الأمر ولتخففي عنها دائما.

ــ هذا ما أفعله معها كلما تذكرته.

دمعت عيناها وقالت:

ــ يحزنني أن أراها تسأل عنه كل الناس الذين عايشوا الحرب، هي لا تنساه أبدا.

ــ لوكان لديك أخ كنتِ أحسست بحرقتها أكثر، المسكينة.

مسحت دموعها وقالت له:

ــ آسفة أزعجتك بهموم عائلتي.

ــ أبداً لم أنزعج... غدا الجمعة هل تقبلين دعوتي لحضور فيلم في السينما؟

ــ صباحاً أم مساءً.

ــ بعد الظهر.

ــ سآتـي.

ولدت بينهما الرغبة بالمضي معا في الحيـاة هي تريـده ويريـدها وبدأت علاقتهمـا بلقـاءات مثل المعجبين، مرت أشهر وازداد حبه لها واتخذ قراراً بحق علاقتهما، فريد الأب يداوم على زيارة شركتـه في بيروت بين الفينة والأخرى.

ــ صباح الخير

ــ أهلا كيف حالك؟ هل ابنـي عصام هنـا؟

ــ لم يصل بعد، تفضـل.

فتحت له البـاب ودخـل للمكتب.

ــ احضري لي فنجان قهوة.

ــ حاضر سيـدي.

خرجت وأغلقت البـاب، بينمـا راح يراجع كـل وثائق العمل، دخلت السكرتيرة تحمل صينية القهوة وكـأس المـاء:

ــ سيـدي هنـاك سيـدة تريد مقابلتـك

ــ دعيها تدخـل

انهمك بترتيب بعض الأوراق، ولم يحـس بوقوفـها أمـامه:

ــ مرحبا

هذا الصوت الحزين ليس غريباً عنه، لطالما ألفته أذناه، ولن تمحوه السنوات، رفع رأسه ليتفاجأ بسيدة نحيلة، أنحل الزمن جسدها، أمعن النظر إليها ووقف فبادرته بالحديث:

ــ كيف حالك؟

تغيّر لون وجهه وعمه السواد، لم يتخيل عودتها مرة أخرى، لقد ظن أن زيارتها الأخيرة سنة ١٩٩٥م هي آخر زيارة لها ولن تعود مطلقا.

ــ أعلم أنك لا تحب رؤيتي، لقد رأيت صورك في الجريدة فأخذت العنوان، جئت لأطلب منك السماح...سامحني أرجوك.

دمعت عيناها وهي تترجاه أن يسامحها

ــ كل ما مررت به من ألم ورعب وخوف وضياع، كان عقاب تلك السنوات التي خنتك وخذلتك فيها، وتركتك للحزن وللوحدة دون رحمة، لن أغادر من هنا، إلا بعد أن تصفح عني، سامحني رجاء.

جثت على ركبتيها تتوسل إليه فسارع إليها وأمسك بيدها وهو يقول:

ــ رجاء، لا تفعلي هذا مجدداً، لقد سامحتك.

ــ صدقني لم أنسك يوما، كنت تعيش في كل يومياتي أذكرك في كل

دقيقـة...أعلم أنني كنت قـاسية جداً، ولكننـي تغيرت أقسـم لك.

أعطاها كأس الماء وظل واقفـا يصغـي إليها:

ــ كيف حال أبناءك وزوجتـك؟ تحبـك صحيح؟ تخاف عليك؟ ليست مثـلي تركتـك للغيـر، أنـا نادمـة، نـادمة جـدا.

ــ هم بخير الحمد لله

ــ هل كنت تذكرني؟

ــ أبداً، ولمـاذا أذكـرك؟

ــ ولا مرة؟

ــ مطلقـاً، لقد سامحتـك، يمكنـك الانصراف مطمئنة.

ــ أشكـرك... لطالمـا كنت طيبـاً معـي، وأنـا لم أقـدر هذه النعمـة كمـا ينغـي، أستودعك الله.

ــ رجاءً لا تعودي مجدداً... رجاءً.

ــ أعـدك لن أعـود، ولكننـي اكتشفت في الأخيـر أنك الرجـل الوحيـد الذي أحبنـي حبـاً جمـاً.

ــ كـانت أو هـاماً فقط، فتـرة مراهقـة وانقضت على خيـر.

خرجت باكيـة، بينمـا برقت الدموع في عينيـه...وهو يقول في نفسـه:

ــ أتذكـرين أيتها الغبيـة ذلك المنـام الذي سردته على مسامعي ذات مسـاء، أخبرتنـي أنك قـد دخلت إلى نفـق مظلم ولم تخرجي منـه، ذاك هو تأو يـل رؤيـاك الملعونة، لطالمـا أخـذك الغرور بنفسـك، وحب المـال والسلطة، فمـاذا جنيت منهم في الأخيـر غير الـذل والسقوط في الهاوية؟ فلترحلـي فقد نسيتـك وسامحتـك...لا تعودي.

إن أهم تطييب لجراحنـا ومآسينـا هو النسيـاان، فالحيـاة صعبـة، ومـا أقسـى قلوب البشر الطاغية، لا الدموع ترحم المستضعفين، ولا الرجاء يبرد جمرة المظلومين، ومـا أصعب الحيـاة لولا فسحة الأمل، تمشـت في الطريق وهي تحدث نفسـها، ومـا أبشع تلك السـاعـات التي نصادف فيها أناسـا تخلينـا عنهم، لنجـدهم بعـد سنـوات طويلة نـاجحين، لقـد رأت عـاطف رفقـة زوجتـه وأولاده...وزاد وجعـها أكثـر، عـادت للمنـزل تبكي خيبـاتها، سنـوات من عمرها ضاعت ولـم تستمتع يومـا بهم مثلمـا تمنت، وقضت حيـاتها في سنـوات الجمر تبحث عن من يحبها بصدق... وأبصرت الحقيقة متـأخرة بعدمـا خرجت من مستنقع الأخطاء، ولكـن ليـس بالأمـاني تدرك الغـايـات.

ــ أمي مريضة جـدا يـا فريـد

ــ اتصلي بالإسعـاف وسآتي فورا للمستشفى، لا تقلقـي لن أترككـم.

أجريت لها عدة فحوصات، وأكـد لهم الطبيب أنها بخيـر، ويجب أن ترتاح وتبتعد عن كـل مـا يزعجها ويرهقها.

ــ سأفعل من أجلها كـل شـيء

ــ فلتهدئي رجاء، ستكون بخير.

ــ فريد لا أملك غير أمي في هذه الحيـاة، أعلم أنها تضغط على نفسها بالبحث عن خالي المفقود.

ــ لا تقلقي سأحدثها بنفسـي عندمـا تستفيق.

حينمـا أفـاقت كان أو ل مـا رأته هو فريد.

ــ من تكون؟

ــ أستـاذ فريدة ابنتـك، لقد طلبت مني مساعدتها.

ــ فريدة حبيبتـي، هي ابنتـي الوحيدة.

ــ لقد أخبرتنـي.

اقترب منها وجلـس بقربها وقـال:

ــ أيمكننـي منـاداتك أمـي؟

دق قلبها بشدة، وأمسكت بيده مبتسمة:

ــ نعم يمكنـك، انه لشرف لي أن يكون لدي ابن مثلك.

ــ أمي أرغب في الزواج من ابنتـك فريدة، هي خلوقة جداً ونحن منسجمان وننـاسب بعضنا.

ــ أهي موافقـة؟

ــ نعم، كانت ستخبرك ولكنـك تعبت فجـأة.

ــ مـا دامت راضية بك لن أقف في طريقها، ومتى تنـوي إحضار عـائلتك؟

ــ عندمـا تتحسن صحتـك، إن شاء الله.

تدخل فريدة فتسارع لعنـاق أمها واحتضانها والبكـاء عليها.

ــ حبيبتـي لا تبكي أنـا بخير، فلتنظري إلى عينـاي، هيـا.

ــ أمي الغالية، يـا نور حيـاتي، خفت عليـك جداً.

ــ من هذا الشاب الوسيـم؟

ابتسمت فريدة ونظرت إلى فريد، وهي تخفي ملامح الخجل عن أمها، ولكنها لا تعلـم أنها ستعود لتلتقـي به بعد أن وعدته بعدم العودة مجـددا...

ــ ومن تكـون هذه الفتـاة؟ ومـا اسـم عائلتها، وأين تسكن؟

ــ تسكن هنـا، وهي يتيمة الأب وتعيـش مع والدتها، اسم عائلتها عصملي، وتزوج والداهـا في بلاد الغربة أثنـاء لجوئهم من الحرب آنذاك.

ــ بني فريد، الزواج مسؤولية، وأنت من ستعيش مع هذه الفتاة، فلتتوكل على الله إن كنت راضياً ومقتنعاً بها.

ــ أشكرك يا أبي.

غادر فريد وبقيت زينب تحدث زوجها.

ــ الحمد لله، أو لادنا كبروا وها هم يستقرون بعيداً عنا.

ــ لا تبكي يا عزيزتي، تمني لهم الخير.

ــ وهذا ما أفعله دائما.

اللقاء الذي جمع فريد مع جيهان لا يغتفر أبداً، فقد شك أنها من دبرت كل اللقاءات، وجمعت ابنه وابنتها طمعا في المال كعادتها... وأنها لم تتغيّر يوما، وتوسلها له بالعفو محض خدعة للوصول إلى هدف معين.

ــ تفضلوا أهلاً وسهلاً

دخل الكل للصالون، أو لاد فريد، وزوجاتهم، وأحفاده.

ــ أنا خالها وهذه خالتها وأبنائي وزوجتي، ونتمنى لابننا فريد وابنتنا فريدة السعادة والذرية الصالحة.

ــ وهذا ما أتمناه أخي عدنان.

تدخل فريدة مع جيهان تحمل صينية المشروبات، الدهشة عقدت لسان فريد

المصدوم، على غرار صدمتها هي به، لم تتوقع أبداً أن يكـون فريد ابن من خانته... كان الجو مشحوناً بالضغط...مكهرباً بذكريـات الماضي الأسـود، وكلمـا نظرت إليه وجدته ينظر إليها بازدراء شديد... حاولت إخباره أنها لا تعلم شيئـاً، وهو يحملها هذا الوضع كله وينعتها داخله بالخائنة والفاجرة التي لن تتوب عن ألاعيبها أبداً...أمضى طول الليـل يفكـر ويكلـم نفسـه عن هذه المصيبة التي حلت به...وكيـف يتخلص منها؟

ــ أيعقل أنها من رتبت لكـل هذا الأمر؟ بالتـأكيد فهي ألاعيبها القديمة، وجاءتني تتودد لي تريد الصفح، لمـاذا لا تتغيـّر معها وتكـون قاسيـا، لمـاذا لا تصفعها، لمـاذا لا تهينـها... عليـك أن تكون شديدا معها وصلبـا، لا تدعها تكسرك كـن قويـا واصرخ في وجهها.

في صباح اليـوم التـالي انتظر السائـق خروج جيهان، ليُقلها إلى حيث ينتظرها فريد...نزل السـائق وطرق الباب.

ــ صباح الخير سيدتـي، السيد فريد يريد رؤيتـك.

نزلت وتذكـرت ذكرياتها الخيـانة المرة، المنزل هذا أعـاد لهما القصة ذاتها والجرح ذاته. لمحته يقف قرب الإسطبـل فاقتربت منه مرتبكة خجلـة.

ــ صباح الخيـر

التفت إليها وهو يكـاد ينفجر غضبا:

ــ فلتكوني صـادقة معي ولـو مرة في حيـاتك، أكنت تعلمين أن ابني يواعد ابنتـك؟ أتريدين تدمير عائلتـي لهذا سألتنـي عنهم؟، لن أسمح لأي شخص أن يزعزع استقرار أسرتي التي تعبت في بنائها. هل فهمتـي؟

ــ اقسـم بغلاوتـك أنني لم أكن أعلـم، أقسـم بالله، كنت مصدومة حينمـا رأيتـك، ولم أصدق الأمر مثـلك.

ــ ألـم يخطر لك سؤاله عن اسـم عائلتـه؟ هل أنت غبيـة لهذه الدرجة؟ تزوجيـن ابنتـك لشخص مجهول... ألا تخافيـن الله من تصرفـاتك الدنيئـة؟ توبـي عودي للواقع ولتتـرك الجشع والطمع جانبـا، فالحيـاة لن تدوم لك.

ــ رجاء لا تحملني أمراً مدبراً من الله، ألا تلاحظ أنهمـا التقيـا ليكمـلا ما لـم أستطع إكماله معك، أعترف أن ابنتـي لا تشبهني، هي أفضل مني، لا تقف في طريقها أرجوك... أتوسل إليـك ألا تفرق بينهمـا بحق الله.

ــ يستحيـل إكمـال الخطبة، يستحيـل، سأطلب من ابنـي أن ينسى ابنتـك ولا تحاولي التقرب من عائلتـي مرة أخرى، وإلا سأخبـر ابنتـك بكل مـا فعلتـه بي... سأخبرها بقبـح أعمـالك، بجشعك بخيانتـك التي دمرتنـي لسنوات، أيتها الحقيرة، هي سنوات قضيتها في العتمة بسببـك، لم أقصر يومـاً في حقـك

يـا خائنة، لم أجرحك يومـا بكلمة كنت رجلاً طيبـاً صادقـاً معك وجازيتنـي بالطعن.

ــ أرجوك كن رحيما معها، أرجوك فلتتركها تعيش معه بحب، أقسمت لك أننـي لا أعلم أن فريد ابنـك.

البكـاء في مثـل هذا الوضع لن ينفعها، وكـل الفرص بمسامحتها قد انقطعت، إنها الحيـاة المؤلمة، نعيش ونستمتع ولا نفكـر في غيرنـا، في مـا ينفعنـا ومـا يضرنـا... فنلعب ألعابـا مميتة ونتلاعب وننسى القـادم، ولا نفكـر في نفسية الآخرين، وقد يأتوننـا لآخـر مرة في العمـر، فلا نصدق دمعتهم ولا نرحم تعبهم، فنخسرهم بأبشـع صورة ونتمنى لو يعودوا لخمسة دقـائق لنفرحهم ولا نكسر قلـوبهم.

ــ سأحاول التفريق بينهما.

ــ في أقرب وقت ممكن لا تتماطلـي.

ــ في أقرب وقت أعدك

ــ يمكنـك الانصراف، ولا أريد رؤيتـك مجدداً.

ــ كيف حال جوزيف؟

ــ جوزيف مـات منذ سنـوات.

ــ رحمه الله، أيمكنني أن أسألك؟

ــ رجاء فلتغادري.... رجاااااء.

ــ هل كنت أنت من يرسل المال لعائلتي؟

التفت ورائه ولم يجب عن سؤالها... ولكن قلبها دليلها وقد علمت بداخلها أنه من فعلها.

ــ فريد، ليت الزمان يعود، ولن أبرح عتبة بابك أبداً، كنت فتاة طائشة لم تستمع لنصحك ولم تفهم خوفك عليها، أرجوك أن تذكرني بالخير دائماً... أرجوك بحق الله.

ــ غادري ولا تنسي ما طلبته منك

ــ لا تكن قاسياً مع ابنتي بالله عليك تلطف بها

ــ ولماذا اخترت لها اسم فريدة؟

ــ لتذكرني بك دائماً، فأستغفر لخطيئتي معك، صدقني هي عوضتني عن خسارتك، أحس أنها ابنتي منك تشبهك، طيبة ومسامحة مثلك.

ــ لا تجبريني على معاملتك بقسوة، فلتنهي الموضوع بأسرع وقت ممكن... واخرجي من الساحة، فلترحلي فلتغادري لبنان نهائياً... فقد سئمت منك كرهتك فلتفهمي ولتبتعد عني وعن أسرتي.

أخرجت من حقيبتها دفتـراً بنيـاً وقدمته له...

ــ أرجـوك خذه واقرأه، لتعلـم أننـي لم أنسـكَ يومـا.

ــ إلى أين تريدين الوصول بهذه التصرفات، متـى تتوبيـن؟ كبرت وغـزا الشيب شعرك ولا زلت تمارسين نفس الطقوس... نفس العيب... لقد كرهتـك...فلترحلـي بعيداً عنـي... أغربـي عن وجهي هـيا.

وضعت الدفتـر على الأرض وغـادرت، كل اللحظات الجميلة التي عشنـاها مع من نحب، قـد تتحول عداوة لمجرد خطأ لا يغتفـر، إلا الخيانة هي إعدام لكـل العلاقـات، هي إبادة للرحمة، فالتصرفات الطائشة تعود علينـا في المستقبـل بالضر، الكـل يعلم أن القلب نبضات، عضلة تخفق لمدة وترحل، كـل من أحببنـاهم هم النبض الجريح، هم النبض الحزين، هم خفقـات تهتف بهم ولهم، ولكن حينمـا نرحـل يدركون حجم الفراغ وليتنـا لا نرحـل لنسمع كلمات السماح، كلمـات الحب من شفـاههم العطرة، تلك كانت آخـر مرة تقف فيها جيهان أمـام منزله وأمامه، وأمـام الحيـاة.

جلست تنظـر إلى ابتسامة ابنتها وفرحها، لم تستطع فعـل أي شـيء للتفريق بينهمـا فلزمت الصمت...صوت الـهاتف يرن:

ــ حبيبي كيف حالك؟ أجل أشاهد مسلسلاً مع أمي، هي تسلم عليك. سأبلغها... تصبح على خير.

ــ فريد يسلم عليك.

ــ حفظه الله، سأذهب لأنام، اعتنِ بنفسك.

ــ انتظري.

قامت وعانقتها طويلا كما لم تعانقها من قبل

ــ تصبحين على خير يا أطيب أم في العالم.

ــ استودعتك الله اعتنِ بنفسك وعيشي بسعادة، تصبحين على خير.

هذه المرة إحساسهما مختلف جدا، ظلت تراقب والدتها إلى أن دخلت غرفتها، لم يفارقها الاستغراب والقلق وجاء الصباح بحسراته وفاجعته لها:

ــ أمي، أمي، أمي لماذا لم تستفيقي بعد، أمي... يا غالية.

دنت منها وهي تلامس يدها الباردة المتحجرة، وخدها المتجمد، أين الروح، أين الحياة، عليك اللعنة ما أظلمك، أمي...أمي، فلتجيبي فلتفتحي عينيك... أمي حبيبتي... لا تتركيني وحيدة... أمي لا ترحلي، لا تتركيني فلتعودي... حبيبتي.

إن الرحيل مؤلم، وعلينا أن نتماسك أمام أنفسنا أن نتقبل الواقع بعد لحظات الفزع، لأول مرة شعر فريد أنه تحول لرجل لا يعرفه، وأدرك حجم خطئه، حينما رأى فريدة تصرخ وتبكي فراق الحبيبة جيهان، لتلتحق بوالديها وأخيها أمير... مرت أيام وفريد يواسيها بزياراته الخفيفة، إلا أن حنان الأب المسامح ربطهما معاً لآخر العمر، إكراماً لروح جيهان.

ــ أمي يا فريد لم تنس أخاها أبداً، بل ذكرته في منامها ويقظتها وبكت عليه بحزن عظيم إلى أن فارقت الحياة، هذه القضية التي شملت كل اللبنانيين دون تمييز، لا ندري إن كان قد قتل على يد المليشيات أو لا يزال موجودا في السجون السورية أم الإسرائيلية، ولكنها بقيت مؤمنة إيماناً قويا أنه لا يزال حياً، وسيعود يوماً ما، إنها حرقة الفراق التي لا يداويها شيء في هذا الوجود.

اشتد وجع فريد الأب، وأحس بالحزن وتأنيب الضمير، لم يتوقع يوماً أن يوجه لجيهان كل تلك الكلمات اللاذعة والقاسية التي تدمي القلب، رغم خيانتها العظيمة له، لطالما تمالك نفسه، وكظم غيضه وغضبه، تمنى لو أن الوقت يعود للوراء ليصلح الخطأ ويتفادى وقوع الحزن، وتمنى لو أنها لم تبحث عنه، لقد أحرق تلك المذكرة ولم يحاول حتى معرفة ما كتبته له ،

وفضل دفن كل ذكرياته معها كأنها لم تكن.

ــ فلترقدي بسلام ولتعلمي أنني سامحتك منذ زمن، حينما علمت أنك لم تكوني لي، فما فائدة أن أذكرك، ستبقين سراً دفيناً لن يخرج لأحد للحفاظ على صورتك أمام الغير، الوداع... رحمك الله.

١١ تشرين الثاني ٢٠١٦

يجلس قرب المدفأة يدفئ عظامه، بجسم هزيل، يلفه وشاح رمادي ذو خيوط سوداء، هذه المرة لم تخفه ألسنة اللهب المتصاعدة من الحطب، ولم يعد يهتم بالنور والظلام، ولم يعد يترقب زيارات الأحباب، لقد نسي كل ما يربطه بالعالم الخارجي، حذفت الذكريات كلها دون استثناء، وأصبح كطفلٍ صغيرٍ بلا ذاكرة، يتعلم الأشياء ولا يذكرها، يرى الوجوه ولا يحفظ أسمائها، ويتساءل دائما أين هو؟ ومن هم المحيطون به؟ وأحيانا يمعن النظر فيهم ولا يناديهم، عاد لغربته ووحدته من جديد، وهذه هي الحياة مستمرة لا شيء ثابت فيها، مرة تغنينا وتفرحنا، ومرة تفقرنا وتبكينا فلا نعرف ماذا تريد منا؟

تدخل زينب للغرفة تحمل له فنجان قهوة.

ــ عزيزي هل أنت بخير؟

ــ من أنت؟

ــ أنـا زينب زوجتـك؟ ألا تذكرنـي؟

ــ أبداً، لا... متى تزوجنـا؟

ــ منـذ سنـوات أنت نسيت أمـا أنـا فـلا أنسـى، التقينـا في المقهى الفرنسـي وتعارفنـا وأحببنـا بعضنـا... تفضـل هذه قهوتـك.

ــ هذه لي؟

ــ أجل حبيبـي

أخذهـا وارتشف منها القليـل وهو يرتجف... ثم نظر إليها وهـي تمسح دموعها.

ــ أحقـاً أحببنـا بعضنـا؟ وهل كنت أحبـك مثلمـا تمنيت؟

ــ كثيراً، أحببتنـي كثيراً، حبيبـي ليتنـي أنا ولست أنت من نسيت.

ــ لمـاذا تبكيـن؟

ــ لا شـيء، غبـار دخـل إلى عينـي

حاولت جاهـدة تمـالك نفسـها، ولكنها خرجت مسرعة، فصادفت جوزيف قـادما.

ــ كم يحزنني رؤية والدك بتلك الحالة، ليته نسي كل العالم ولم ينسني.

ــ أمي فلتصبري رجاء، إن الله أحبه وابتلاه بالمرض.

لقد أصابه الزهايمر ونسي كل شيء حتى اسمه... دفن معه سر خيانة جيهان...توفي فريد عن عمر يناهز السابعة والسبعين ودفن بالقرب من قبري والديه وجوزيف الوفي.

بعد رحيلك يا حبيبي لم تعد لبنان جميلة، وكذلك تونس كل شيء يؤلمني، الذكريات والفراق، فإذا رحل من نحبهم فلا قيمة للأشياء بدونهم، فالوداع للذاكرة التي أتعبتها مراحل الحياة الصعبة، وأحداثها المريعة، ويومياتها الضنكة، فالوداع يا حبيبي، الوداع بطعم الملح.

أخرجت تلك القصاصة التي أهداها لها في مقهى باريس ذات شتاء ودفنتها في قبره البارد، كان قد كتب لها...."لا طعم للحياة بدون العائلة".

نوال سلماني

الجزائر – نوفمبر ٢٠١٩

كلمة شكر

أود أن أشكر كل الأصدقاء الذين آثروا الرواية بمراجعتهم ومناقشاتهم البناءة وأخص بالذكر المبدع حاتم القاضي، والشاعر السوري جوزيف إيليا،والأستاذ العراقي سيد كريم الموسوي،وكلا من الأستاذ علي أبو دهن ،والأستاذ محمود بشروش من لبنان،وإلى الأديب والناقد المصري حسام طه...

******

للتواصل مع الكاتبة عبر الايميل ..

alsoltanasalman29@gmail.com

بـبـلـومـانـيـا
للنشر والتوزيع